coptic-books.blogspot.com

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت، في ١/١٠/١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة، طبعة سابعة ٢٠٠٧

دار المشرق ش م م،
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-1147-0

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: (٠١) ٤٨٥٧٩٣
فاكس: (٠١) ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
Email: libor@cyberia.net.lb

صدر هذا الكتاب بالإنكليزيّة تحت عنوان:

John Powell, S.J.
Unconditional love
Tabor Publishing
200 E. Bethany Drive
Allen, Texas 75002, U.S.A

حُبٌّ بلا شُروط

تأليف
الأب جان پاول اليسوعيّ

نقله إلى العربيّة
المطران بولس الصيّاح

الطبعة السابعة

دار المشرق
بيروت

coptic-books.blogspot.com

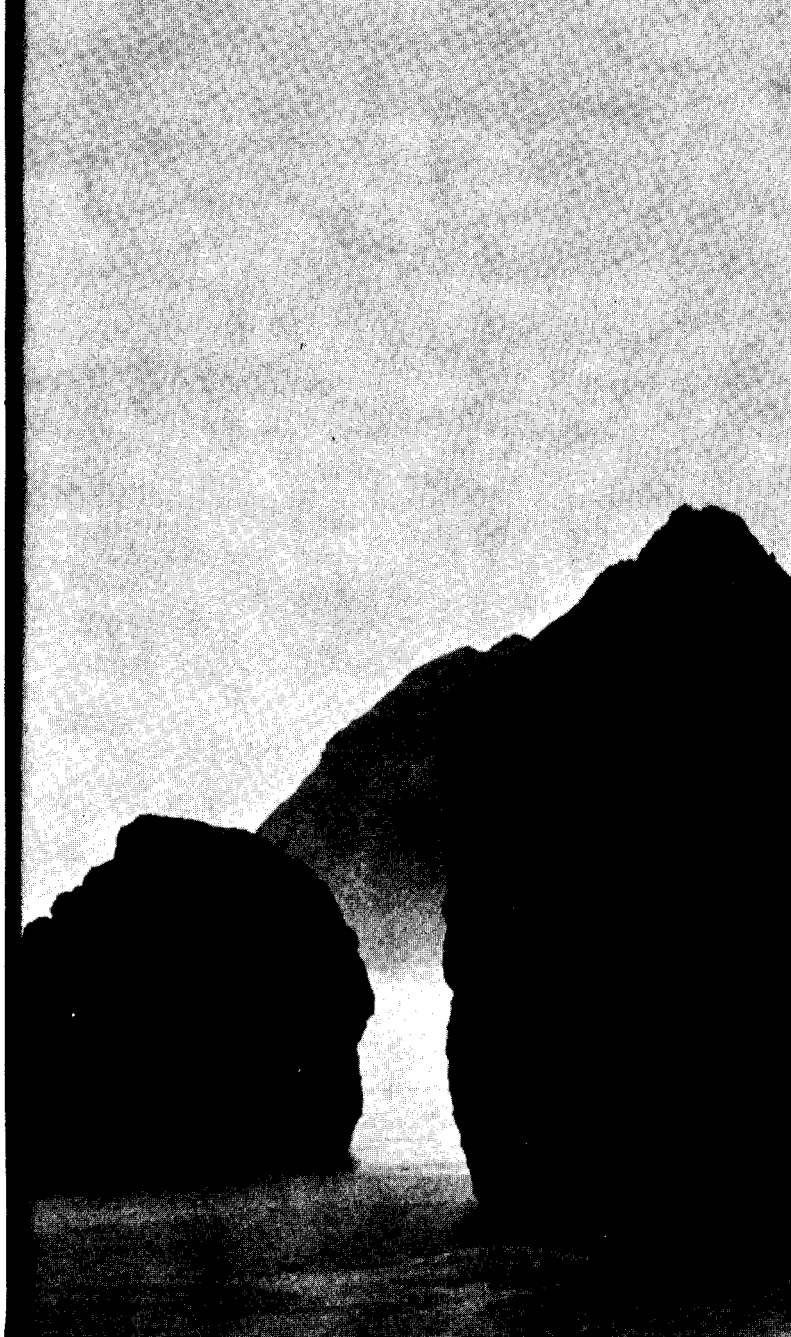

- ١ -

مَبْدأُ الحَيَاة

وَٱلبَسُوا فَوقَ ذٰلِكَ كلِّهِ ثَوبَ المَحبَّة:
إنّها رِبَاطُ الكَمَال.

قول ٣: ١٤

(*) أُخذت نصوص العهد القديم من ترجمة الرهبانيّة اليسوعيّة، ١٩٨٨، منشورات دار المشرق، بيروت.

(**) أُخذت نصوص العهد الجديد من ترجمة المطبعة الكاثوليكيّة، الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٧ - منشورات دار المشرق، بيروت.

coptic-books.blogspot.com

قال سقراط: «إنّ حياة لم تُفحص، لا تستحقّ أن تعاش». فعاجلاً أم آجلاً، سيتساءَل كلّ منّا في أَعماق ذاته، لِمَ الحياة؟ إنّه سؤال هامّ ومؤلم أحيانًا، ولكنَّ طرحه يبقى ضرورة قصوى.

عندما أطرح على نفسي هذا السؤال، يجب أن أُوجِّهه إلى وجداني، لا إلى عقلي. فعقلي قد تلقَّن عددًا كبيرًا من الأجوبة المثاليَّة، وهي دائمًا جاهزة تهرع إلى الواجهة ساعة أضغط على «الزرّ المناسب».

لقد رأى عالِم النفس الكبير أبراهام مسلوف، Abraham Maslow، أنّنا في اتِّباعنا لأهدافنا، وتلبيتنا لحاجاتنا، نسلك بحسب تراتبيَّة واضحة؛ فكأنّنا نصعد سلَّمًا تعدَّدت درجاته. تُمثِّل السفلى منها الدوافع الأساسيَّة عندنا، تلك التي تَحثُّنا على البحث عن المأكل والملبس، والاحتماء من المخاطر

الخارجيَّة التي تهدِّدنا. أمّا الدرجات الوسطى فهي تمثِّل حاجات عندنا وأهدافًا «أكثر إنسانيَّة»، حاجات من «طراز أرفع»، كالكرامة والانتماء والحبّ. وفي قِمّة السلّم تقع أرفع طموحات الإنسان: الاستقلاليَّة والتفوُّق. ويسمّي تلك الحال «تحقيق الذات». بالطبع، نحن لا نبلغ القمَّة أبدًا، ولكنَّ التَوق إليها ينعش دائمًا مسيرتنا. ومن قناعات مسلوف أنّنا نكون أكثر إبداعًا عندما نكون في تَوق إلى ما لا نملك، وإنّه في الحقيقة لكذلك.

لذا أطلب إليك أن تقوم معي بما أسماه داك همارشولد، Dag Hammarshjold، «أطول رحلة في الحياة، الرحلة إلى داخل الذات»، إلى غور كيانك، حيث الأجوبة لم تُحفظ عن ظهر القلب، بل تأتي من صميم الوجدان. أنا أعرف أنّي أدعوك إلى رحلة قد لا ترغب في القيام بها. لقد كتب كارل يونغ، Carl Jung، عالِم النفس الشهير، في كتابه «ذكريات وأحلام وأفكار» يقول:

«كلّما أطلقنا الدعوة إلى الولوج في أعماق الخبرة الداخليَّة عندنا، إلى المحور الأساسيّ لشخصيَّتنا، تملَّكنا الرعب، وتهرَّب العديد منّا... فالمخاطرة في الولوج إلى خبرتنا الداخليَّة، مغامرة

coptic-books.blogspot.com

الروح، تبقى، في كلّ حال، خارج متناول غالبية الناس».

فتعال نتساءَل معًا: «لِمَ الحياة؟».

قد يكون مفيدًا أن يجلس كلّ منّا ويخطّ كتابًا يصف فيه الحياة التي يصبو إليها. حاول أن تفعل ذلك. بين يديك صكّ أبيض، بإمكانك أن تدوّن فيه النجاح والفشل، الدموع والضحك، طول العمر وقصره وكذلك الكرب والنشوة. ولديك القدرة على التحكّم في اللذة والسلطة والمال والشهرة والعلاقة بالآخرين. فما هي الحياة الفضلى في نظرك؟ وما الذي تريده من الحياة أكثر من أيّ شيء آخر؟

وربّما يفيدك أن تكتب وصفًا لِمَا تخاله «يومك الكامل»، أو تضع لائحة بالنشاطات العشرة التي يحلو لك القيام بها. وإذا ما تأمّلت في ما كتبت، انجلى أمامك بوضوح عمق حاجاتك وآفاق تطلّعاتك. فإذا لاحظت مثلاً أنّك، في أثناء نهارك الذي تحبّ، أو في النشاطات التي يحلو لك القيام بها، تجد نفسك لوحدك، فربّما كان في عمق أعماقك حاجة إلى الانفراد، أو رغبة في تجنُّب العلاقة مع الآخرين. ويبقى السؤال: «لِمَ الحياة ـ حياتك أنت؟».

لكسب مقام في السماء!

قصّتي هذه ترقى إلى سنوات خلت، يوم كنت في ألمانيا، أُحاول أن أتملّك لغة أبنائها. كان لي الحظّ أن أُقيم، لفترة من الزمن، في دير للراهبات، في منطقة نائية من مقاطعة بافاريا، وكانت هناك راهبة نحيلة البنية، ابنة أربعة وثمانين عامًا، تسهر على ترتيب غرفتي. وكنت كلّما غادرت تلك الغرفة تأتي تنظّفها، لا أعني تنظيفًا سطحيًّا، بل كانت تشمّع خشب أرضها، وتلمّع مفروشاتها، إلى آخر ما هنالك من أعمال. وحدث يومًا أنّي عدت إلى غرفتي، بعد نزهة قصيرة، لأجد الأخت «شوستر» على ركبتَيها. تنهي تشميع الأرض وتلميعها. فقرّرت أن أُمازحها، فقلت ضاحكًا: «يا أُختي إنّك ترهقين نفسك في العمل!».

فانتصبت تلك الأخت العزيزة المندفعة على ركبتَيها، وشخصت بنظرها إليَّ وخاطبتني بجديَّة كادت تتحوَّل إلى خطورة، قالت: ألاَ تعلم أنّ ثمن السماء ليس برخيص؟!».

بارك اللّه فيها، فقد تدرَّبت على الإيمان، وآمنت

coptic-books.blogspot.com

حقًّا، من كلّ قلبها، أنّ ثمن الحياة الأبديّة عيش على الأرض تظلّله المشقّة. علينا أن ندفع ثمن السماء، وأنّه في الحقيقة لباهظ. فأنا على يقين أنّ السماء الآن ملك لتلك الأخت الطيّبة، فقد عاشت، بكلّ أمانة، حسب معتقداتها. فما من شكّ أنّ في السماء قطعة سُجّلت خصّيصًا لأرواح كتلك التي للأخت شوستر. ولكن لا يسعني أن أُصدّق أنّ هذا السعي الدؤوب، المكتئب، لنَيل مقام في السماء، هو في الحقيقة طريقة الحياة التي انتدبنا إليها الربّ. كما أنّي لا أعتقد أنّ اللّه يريدنا أن ندمي في الزحف رُكَبنا وأيدينا لنحصل على قطعة في السماء عندما نُقتطع من الأرض. فاللّه يفرض على المرء «قطعة من لحمه» ثمنًا للحياة الأبديّة. أنا أعتقد حقًّا أنّ الحياة الأبديّة قد بدأت فينا لأنّ اللّه يحيا في داخلنا، وأنّ لنا في ذلك عيدًا دائمًا. نحن أغصان في كرمة المسيح (أنظر يو ١٥/٥).

بالطّبْعِ، نَحْنُ لا نبلُغُ القِمّة أبدًا،
وَلكن التّوق إليْهَا ينعِشُ دَائمًا مَسيرَتنا.

coptic-books.blogspot.com

هل تتذكّر، كما أتذكّر أنا، تلك الصلاة الشهيرة «السلام عليك يا أمّ الرحمة والرأفة...؟» إنّها وصف لحياة ملؤها الأسى، وكأنّ الإنسانيّة قد هجرتها...، إليكِ نصرخ نحن المنفيّين أولاد حوّاء، ونتنهّد إليك نائحين وباكين في هذا الوادي، وادي الدموع... إنّي غالبًا ما فكّرت كم تكون الحياة كئيبة، لو كان ذلك في الحقيقة اعتقادنا. ولكن يسوع قال: «... أمّا أنا فقد أتيت لتكون الحياة للناس، وتفيض فيهم». يو ١٠/١٠ وقال أيضًا: «قلت لكم هذه الأشياء، ليكون بكم فرحي، فيكون فرحكم تامًّا»، يو ١١/١٥ .

لائحة باهتماماتي الشخصيّة

علينا، أنت وأنا، أن ننفتح على السؤال: «لِمَ الحياة؟» ولنتفحّص دقائق حياتنا اليوميّة. ماذا أفعل؟ أترى حياتي سلسلة من المواعيد... والاجتماعات... والمعاملات... والتليفونات... أسير من أزمة إلى أخرى؟ أتُراني أتوق إلى المستقبل في حياتي؟ إلى الأسبوع المقبل؟ إلى السنة المقبلة؟ أم أعيش ليومي، وهمّي الوحيد أن أستمرّ في الحياة؟ عندما أستيقظ في الصباح أتراني أسبّح الله على النهار الجديد، أم أنّي أُلقي عليه باللائمة من جرّاء طلوع ذلك

الفجر؟! هل أنا في صراع مع البقاء؟ أتراني أشعر وكأنّي سجين في الحياة؟ وهل أنا عائش بقوّة الاستمرار أتساءل دائمًا كم من الزمن يمكنني أن أستمرّ؟

بعضنا يخاف، كما قال كارل ينغ، Carl Yung، أن يجابه تلك الأسئلة لما قد تفرض علينا الإجابة عنها. نحن نعرف أنّ أحدًا سوف يتذرّع بتلك الأجوبة ليقول لنا، من دون أن يقدّر أبعاد ما يقول، إنّه علينا أن نُغيّر الكثير في حياتنا، أن نتّخذ عملاً آخر، أن نترك عائلاتنا، أن نُبدّل مكان سكننا، إلى ما هنالك. بالطبع، قد يكون من الضروريّ أن نغيّر شيئًا ما في حياتنا، ولكنّه أكثر ضرورة وأهمّيّة، في اعتقادي، أن يطول التغيير ذواتنا. فربّما كان في داخلنا ما هو أولى باهتمامنا، لأنّه ينخر دومًا أحشاءنا، فيخطف من حياتنا كلّ لذّة وفرح.

فإذا كنت مثلاً من أُولئك الذين يعيشون دومًا كما يريد الآخرون، أعيش وأموت وأنا أبحث عن موافقتهم على ما أنا أو على ما أفعل، فلا التغيير في نمط الحياة ولا التبديل في العمل أو العائلة أو المناخ يجدي نفعًا. فأينما ذهبت، ومهما فعلت فالمشكلة ستلازمني . وسوف يراودني دائمًا شكّ يقضّ

coptic-books.blogspot.com

مضجعي: أتراني أسأت التصرُّف فلم أعجبه؟... إنّها لم تبتسم لي، فلم يرق لها سلوكي... (وألف «إلى ما هنالك»).

والقول نفسه ينطبق على ذاك الذي يعيش وكأنّه «مكره على الكمال». فهو يشعر بأَنَّ لا حقّ له في أن يفرح بأيّ إنجاز، لأنّه ما من شيء يكون كاملاً. فمثل هذا الإنسان ينتقد دائمًا، ولو باطنيًّا، كلّ شيء وكلّ الناس. (فما من شكّ أنّه عندما يذهب إلى اللّه، سوف ينصح له كيف يجب أن يحسن واقع السماء).

علينا أن نبحث عن مثل تلك المواقف في نفوسنا، علّنا نعيد النظر في بعض ما نحن عليه. ولكنّ أهمّ ما أنا مدعوّ إلى بحثه هو ما يمكن أن أسمّيه «مبدأ حياة».

ماذا يعني «مبدأ الحياة»؟

مبدأ الحياة كناية عن هدف أو تطلُّع عامّ، أنتقيه ليصبح الأساس والموجّه لقراراتي. مثلاً: «إعمل الخير

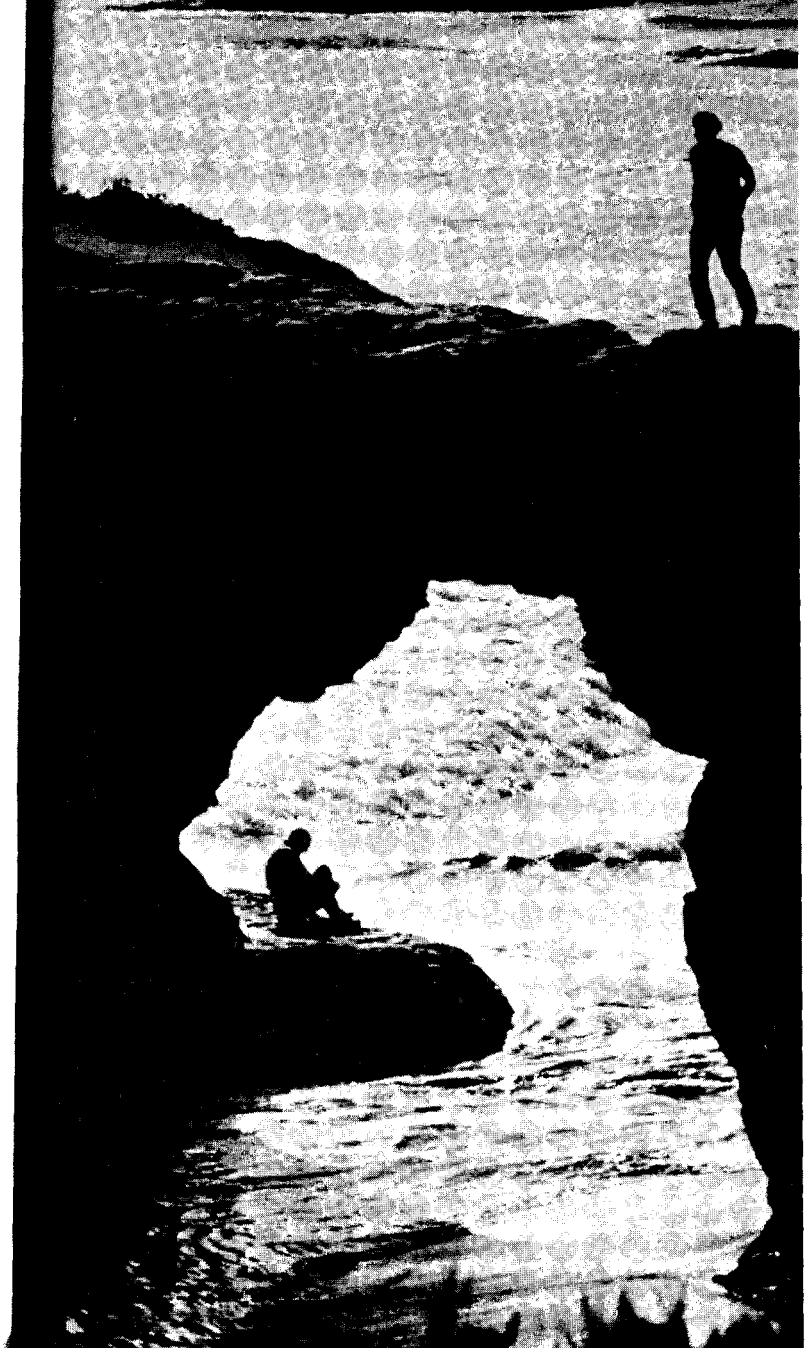

... وَيَبْقى السُّؤال: لِمَ الحَيَاة؟ حَيَاتُك أنت؟

coptic-books.blogspot.com

واجتنب الشرّ». فإذا كان هذا من مبادئ حياتي، عندما أجد نفسي أمام خيارَين، أحدهما للخير والآخر للشرّ، أنتقي الأوّل وأميل عن الثاني.

أعتقد أنّ لدى كلّ منّا مبدأ يتميَّز في أهميَّته عن المبادئ الأخرى، فيصبح هو الموجِّه لها. قد يكون من الصعب أن ننتشله من أعماق اللاوعي عندنا، لنتفحّص كيانه، ولكن ليس هناك من شكّ في وجوده. وكما أنّ في أعماق كلّ منّا حاجات وتطلُّعات وقِيَمًا تشغلنا، فإنّ هناك أيضًا، في تعرّجات حياتنا اليوميَّة، همًّا يَبرز وكأنّه الأهمّ. ومبدأ الحياة هذا يطول كلاًّ من قراراتنا، فكأنّه النغم البارز في قطعة موسيقيَّة، يتردّد في كلّ جزء منها، وكأنّه اللحمة لتلك الأجزاء كلّها. وبالطبع، يبقى لكلّ منّا، دون سواه، أن يجيب في أعماق نفسه عن السؤال: «ما هو مبدأ حياتي»؟

فبعض الناس مثلاً يبحثون، قبل كلّ شيء، عن سلامتهم. فيتجنّبون الأماكن الخطرة ومعها أيضًا الفرص التي كانت تنتظرهم هناك. قرّروا ألاَّ يخاطروا. يَلزمون بيوتهم عند المساء ويحبسون أنفسهم عن الآخرين ولسان حالهم يقول: «أجدر بنا أن نسلمَ من أن نندم». وما يشبه ذاك ينطبق

على إنسان مبدأ حياته الواجب، أو تقدير الآخرين، المال، الشهرة، النجاح، المرح، العلاقات الإنسانيَّة، إرضاء الآخرين أو السلطة...

الممارسة تضفي على العادة كمالها

أن يكون لدى المرء مبدأ حياة، فتلك «قضيَّة اقتصاد نفسيّ». إنّها توفِّر عناء البدء دومًا باتِّخاذ القرارات من البداية. فإذا كان مبدأي في الحياة «المرح» مثلاً، وحدث أن تلقَّيت دعوتَين في ليلة واحدة، أطبِّق مبدأي ببساطة فألبِّي الدعوة حيث المرح أوفر. عندما أكون قد انتقيت مبدأ حياة، تخفّ صعوبة القرار عندي وتنتفي فيَّ كلّ حاجة إلى أن أتساءَل في نفسي، كلّ مرّة، عمّا أبحث عنه في الحياة. إنّها عمليَّة توفير لعناء نفسيّ.

من المهمّ جدًّا أن نعي أنّنا خلائق تتحكّم العادة فينا. فعندما نفكِّر بطريقة ما، أو نبحث عن خير ما، أو نلجأ إلى دافع ما، فنحن، في كلّ حال، نكوِّن عادة عندنا، أو نرسِّخ في أنفسنا عادة. ذلك كمَن يحرث حقلاً، فكلّ حراثة تُحدِث في الأرض عمقًا جديدًا. (هل حدث أن حاولت التخلُّص من عادة ما؟ إذًا أنت تفهم ما أُحاول أن أقول).

coptic-books.blogspot.com

هكذا هي الحال مع مبدأ الحياة، مهما كان نوعه. فكلّما طبّقته مرّة ترسّخت فيك العادة أكثر. العادات تبدأ تتحكّم فينا منذ بدء الحياة. هي تُحدِّد سلوكنا وتُوجِّه أفعالنا وردّات الفعل عندنا. وسوف نموت تمامًا كما عشنا. فمَن ظهر أنانيًّا متطلِّبًا أو متساهلاً سموحًا عندما أصبح كهلاً، بدأ يكون ما صار إليه منذ أن كان طفلاً. فالمُسنّ الراسخ في الرداءَة، تمامًا كما القدِّيس المسنّ، كلاهما تَمرّس على ما هو عليه الآن طيلة عمره، ولكن كلاً منهما تمرَّس على مبدأ الحياة الذي انتقاه. فما ستكون عليه أنت وما سأكون عليه أنا في آخر العمر هو ما نحن في صدد إقراره وتطبيقه في حياتنا اليوم. هنالك قرار أساسيّ، مبدأ حياة، سيتملّكنا يومًا حتّى عمق الدم الذي يجري في عروقنا. وما من شكّ في أنّنا سنموت تمامًا كما عشنا.

coptic-books.blogspot.com

مبدأ حياة يسوع

في سرد وقائع ما عرف «بتجربة المسيح»، (لوقا ٤/ ١ - ١٣)، يوضح يسوع في بداية حياته العلنيَّة للناس مبدأ حياته. وبوضوح أكثر، نراه يرفض مبادئ ثلاثة عرضها الشيطان عليه. إنتظر يسوع حتّى سنّ الثلاثين كي يبدأ حياته العلنيّة، كما كان يفعل كلّ معلّم في إسرائيل، في تلك الآونة. وقبل أن يبدأ يسوع حياته العلنيَّة قاده الروح إلى الصحراء

«ورجع يسوع من الأردنّ، وهو ممتلئ من الروح القدس، فأقام بدافع من الروح في البريَّة أربعين يومًا، وإبليس يُجرِّبه، ولم يأكل شيئًا في تلك الأيّام. فلمّا انقضت أحسّ بالجوع. فقال له إبليس: «إن كنت ابن اللّه، فمر هذا الحجر أن يصير رغيفًا». فأجابه يسوع: «مكتوب: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». فصعد به إبليس، إلى مكان مرتفع وأراه جميع ممالك الأرض في لحظة من الزمن، وقال له: «أوليك هذا السلطان كلّه ومجد هذه الممالك، لأنّه سُلِّم إليَّ وأنا أوليه مَن أشاء. فإن سجدت لي، يعود إليك ذلك كلّه». فأجابه يسوع: «مكتوب: للربّ إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد». فمضى به إلى أورشليم، وأقامه على شرفة الهيكل وقال له: «إن كنت ابن اللّه، فالقِ بنفسك من ههنا إلى الأسفل، لأنّه مكتوب: يوصي ملائكته بك ليحفظوك»، ومكتوب أيضًا: «يحملونك على أيديهم لئلاّ تصدم رجلك بحجر». فأجابه يسوع: «لقد قيل: لا تجرِّبنّ الربّ إلهك». فلمّا أنهى إبليس جميع ما عنده من تجربة، انصرف عنه إلى أن يحين الوقت». لو ٤/١ - ١٣ .

التجربة الأولى كانت دعوة المسيح ليعتنق **اللذّة** مبدأ لحياته. كان يسوع قد أقام في البرِّيَّة أربعين يومًا، ولم يأكل شيئًا، فلمّا انقضت أحسّ بالجوع. وَعْد الشيطان له كان إشباع جوعه الجسديّ، فأتى جواب يسوع: «في الحياة ما هو أهمّ من الخبز بكثير».

فصعد به إبليس إلى مكان مرتفع، «وأراه جميع ممالك الأرض في لحظة من الزمن» ووعده **بالسلطان** على كلّ تلك الممالك وشعوبها. فرفض يسوع مبدأ الحياة هذا أيضًا: «للربّ إلهك تسجد وإيّاه وحده تعبد». فالمسيح لا يعمل لا في سبيل **اللذّة** ولا طمعًا **بسلطان**.

فمضى به الشيطان إلى شرفة الهيكل وطلب إليه أن يلقي بنفسه من هناك، لأنّه مكتوب: «يوصي ملائكته بك ليحفظوك». الشيطان يحاول، أمّا تصميم المسيح فلا يتزعزع. إنّه لن يفرِّط بمسؤوليّته الشخصيَّة عن حياته. فالتجربة الثالثة، في نظري، تعني، في ما تعني، أنّنا لسنا بالحقيقة أحرارًا. وفيها محاولة لحملنا على القبول بأنّ هنالك حتميَّة تجعلنا نبرِّر **تهرّبنا من المسؤوليَّة**. فجواب المسيح واضح: «لا تجربنّ الربّ إلهك».

coptic-books.blogspot.com

لقد شاء المسيح أن يوضّح لنا مبدأ حياته ويعلنه بحزم، وكأنّه يقول: لن أعيش للسعي إلى اللذة أو السلطة، ولن أسمح بأن يتحمّل آخر مسؤوليّة حياتي وأعمالي».

مبادئ حياة فرُويد، Freud، أدلر وسكينر Adler Skinner

المبادئ التي رفضها يسوع، عرض واحداً منها كلّ من ثلاثة علماء نفس كبار، وحسبها مبادئ حياة تصلح لتُوجِّه حياة كلّ إنسان.

لقد اقترن اسم سكمند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) بمبدأ **اللذّة**، أو الانسياق إلى ما يطيب للمرء. كان فرويد في الشطر الأوّل من حياته العلميّة، يعتقد أنّ كلّ الأمراض العصابيّة تأتي نتيجة لكبت جنسيّ، وفي وقت لاحق، لاحظ أنّ هنالك عوامل شخصيّة أخرى لها تأثيرها. ولكنّه لم

لكُلّ إنسَان مَبْدَأ حَيَاة يَقود خُطَاه،
وَإذا مَا تعذَّر إخرَاج ذَاك المَبْدأ إلى النّور،
فَهَذا لا يَعْني أنّه غَير مَوجُود.

يُبدِّل نظرته في العمق. فتابع استعمال لفظة «الليبيدو» أي «الواقع الجنسيّ الغريزيّ»، ليصف القوى والرغبات التي تصدر عن «الهو»، «Id». في نظريَّة فرويد، يمثِّل «الهو» الدوافع (الحيوانيَّة): الغرور، والشراهة والتحرُّق. إنّها مصدر طاقة تظهر في دوافع عاطفيَّة. فتلك النزوات تبقى بدائيَّة، غير مصقولة، تبحث فقط عن إشباع فوريّ لها. وقد رأى فرويد أنّه من الضروريّ تنظيم تلك الرغبة الأساسيَّة في اللذّة. لذا يأتي «الأنا الفوقيّ»، (المراقب) ليفعل ذلك. وهذا يعني أنّ في كلّ إنسان تجاذبًا متواصلاً بين المرغوب فيه والمسموح به. ثمّ يأتي «الأنا» (الذات ـ الفرد) ليَحُلّ عقدة التجاذب تلك. «فالأنا» أشبه بالقسم المنفَّذ في تركيبتنا النفسيَّة، ومن شأنه أن يخلق توازنًا بين الرغبات وما يسمح به واقع الحياة. ولكنّ الحقيقة تبقى أنّ في الدوافع البشريَّة، دوافع اللذّة وتلبية الرغبات الشخصيَّة، نزعة حيوانيَّة قويَّة. أأُحبطت اللذّة أم ظهرت بثوب هادئ معتدل، فهي تبقى، في نظر فرويد، الدافع الأساسيّ في كلّ إنسان.

أمّا ألفرد أدلير، Alfred Adler، (١٨٧٠ - ١٩٣٧)، فقد تتلمذ على فرويد حتّى سنة ١٩١١، عندما قرّر أن ينفصل عن معلّمه ليبدأ تكوين

مدرسة في علم النفس اقترن بها اسمه. وهي «علم النفس الفرديّ». أساس معتقداتها أنّ كلّ إنسان **فريد** في ذاته وفي مشاكله النفسيَّة. وقد أخذ على فرويد تطبيق حلّ واحد على كلّ المشاكل من دون تمييز. وأخذ عليه بنوع أخصّ نظريّته التي تقول إنّ إحباط اللذّة هو دائمًا وراء كلّ مشكلة نفسيَّة، عند كلّ إنسان. ولكنّ أدلير سرعان ما وقع بدوره في الخطأ نفسه، فراح ينظر إلى كلّ مشكلة نفسيَّة وكأنّها نتيجة لتعويض عن شعور بالنقص. كما رأى أنّ الجنس، و«الواقع الجنسيّ الغريزيّ» يشكّلان حلبة صراع للتسلُّط. وهو يعتقد أنّ في كلّ علاقة صراعاً للتسلُّط: فتلك حال الطفل الذي يحاول التخلُّص من سلطة والديه، والزوج والزوجة اللذين يحاول كلّ منهما السيطرة على الآخر. وكلّ هذه تبدأ، بحسب أدلير، بمركَّب نقص. ومركَّب النقص هذا يطول كلّ إنسان، كما أنّ لدى كلّ إنسان رغبة في التعويض من شعوره بالنقص. وقد قال أدلير إنّ الصراع في سبيل السلطة يجب أن يتحوَّل إلى تحقيق أعمال ناقصة وإيجابيَّة. وتتمحور نظريّته حول الفكرة التالية: إنّ الحافز الأساسيّ عند الإنسان هو التسلُّط والإنتاجيَّة.

coptic-books.blogspot.com

وعالِم النفس الثالث الذي نودّ التبصّر في مبدأ الحياة الذي اعتنقه هو ب.ف. سكينر، B.F. Skinner، وهو عالِم معاصر، يرى أنّه لا اللذّة ولا السعي إلى السلطة يُسيّران حياة الإنسان. فالإنسان في نظره نتيجة حتميَّة لتأثيرات البيئة عليه. وهذا يدعونا، بشكل منطقيّ، إلى تجنُّب المسؤوليَّة الشخصيَّة في حياتنا. فنظريَّة سكينر، أو «مبدأ التأثير الفاعل للمحيط» ترتكز إلى الاعتقاد بأنّ النوع من السلوك الذي يستجلب المكافأة، هو نفسه الذي نلجأ إليه من جديد، فيترسّخ فينا. وإذا ما كانت نتيجة السلوك سلبيَّة انثنينا عنه وحاولنا التحوُّل إلى سلوك آخر. في كتابه «ما وراء الحرّيَّة والكرامة البشريَّة» يحاول سكينر أن يدحض النظريَّة القائلة بأنّ حرّيَّة الإنسان تخوّله انتقاء مبدأ له في الحياة. إنّه يرى أنّ قدر الإنسان ألاّ يتمكّن من انتقاء أيّ شيء. نظريّته «سلوكيَّة» تلتقي في آخر المطاف بالنظريَّة الحتميَّة. فإذا ما قبل الإنسان بذلك، قَبِل بالتفريط بمسؤوليَّته الشخصيَّة عن حياته وأعماله. فموقف مثل هذا الشخص هو موقف مَن قرّر الانتظار ليرى ما تخبّئ له الحياة. إنّه موقف المتفرّج. فتمسي حياة الإنسان، في مثل هذه الحال، أشبه

بأسطوانة سجّل عليها كلّ شيء منذ الطفولة، وهي تتطوّر وفقًا للبرنامج المرسوم. فالمسار أوتوماتيكيّ، والقصَّة لا تقبل التغيير. كلّ شيء عندنا مقرَّر بمعزل عن إرادتنا. فما من إنسان يتمتَّع بحرّيَّة أو مسؤوليَّة، هذا ما يقوله سكينر.

منافذ إلى حياتي

ما من شكّ أنّ في نظرة كلّ من هؤلاء العلماء الثلاثة بعضًا من حقيقة. (من الصعب أن يكون إنسان على خطأ تامّ). فمجرَّد التفاتة إلى ذواتنا تظهر أنّ في داخل كلّ منّا ما يدفع به إلى اللذّة، كما أنّ هنالك ما يشُدّ به إلى التسلُّط، ونحن نعلم أنّه قد ترسّخت فينا بعض ردّات الفعل، والأفكار المسبقة، كما أنّ في نفوسنا مخاوف عدّة. ونُقِرُّ كذلك بأنّ حدودًا وضعت لحرّيَّتنا من جرّاء خبرات عشناها، خاصّة أيّام طفولتنا.

ولكن تبقى لكلّ منّا قدرة على العيش الحرّ، واتِّخاذ القرارات، واعتناق القِيَم، وسلوك سبل تنيرها حوافز تنبع من ذواتنا. وحسن لنا أن نعود فنستعرض قرارات اتّخذناها ونتساءَل: أيّ من المبادئ التي ذكرنا يبدو مهيمنًا في حياتنا؟ فهل

coptic-books.blogspot.com

قصّة حياتي تهافت إلى اللذّة؟ أم تراني أمضيت وقتي أُسابق الآخرين، أطمح إلى الغلبة، أسكر بخمرة التسلُّط الفجّة؟ ربّما لا هذه ولا تلك كانت الدافع في حياتي. وقد لا يكون هناك من دافع في حياتي، وكأنّها تستمرّ بقوّة الجاذبيّة. لقد قرّرت ألاّ أُقرّر. وربّما أكون قد قرّرت ألاّ ألزم نفسي بأيّة مسؤوليّة، فأَهيم في الحياة وكأنّ لا حول لي ولا قوّة. (يرى العديد من الناس اليوم أنّ قدرتهم على تسيير حياتهم أو تغييرها أصبحت ضئيلة).

أشخاص من الإنجيل: أصحاب مبادئ

نجد في الإنجيل أشخاصًا يجسّدون مبادئ الحياة الثلاثة التي ذكرنا. فهيرودس اعتنق مبدأ اللذّة، وأظنّ أنّه كان في حالة سكر عندما أحضر يسوع أمامه للمحاكمة:

ما سَوفَ نَؤول إليـه، أنتَ وَأنـا،
لن يَكون سِوى أكثر وَأكثر
ممّا نُحاول أن نَكونَ عَليـهِ الآنَ.

coptic-books.blogspot.com

«فلمّا رأى هيرودس يسوع سُرَّ سرورًا عظيمًا، لأنّه كان يتمنّى من زمن بعيد أن يراه لِمَا سمع عنه، ويرجو أن يشهد آية يأتي بها. فسأله بكلام كثير، فلم يجبه بشيء. وكان الأحبار والكهنة يتّهمونه بعنف. فاحتقره هيرودس وجنوده، وسخر منه فألبسه ثوبًا برّاقًا، وردّه إلى بيلاطس».

لو ٢٣/٨ ــ ١١

أعتقد أنّ هيرودس كان في حالة سكر لا لأنّ التاريخ صوّره كإنسان ضعيف، لا يهمّه سوى لذّته الشخصيَّة، بل لأنّ المسيح رفض أن يكلِّمه. وقد فعل ذلك لأنّه لم يكن يتوقَّع منه أيّ شيء. كان رجلاً ترعرع في قصور روما، محاطًا بأشخاص ما تعوَّدوا أن يعاكسوه في شيء، ولا حتّى في انفصاله عن زوجته ليقترن بامرأة أخيه هيروديا. وعندما ارتفع صوت يوحنّا ضدَّ هذا الزواج وضعه هيرودس في السجن، إلى أن أقنعته هيروديا، بواسطة ابنتها سالومه، أن يقدِّم لها رأس يوحنّا على طبق. أعتقد

"لَن أَعيش لِلّذَّةِ وَلا لِلسُّلطَة،
وَلن أتخلّى عَن مَسؤوليَّتي الشَّخصيَّة،
عَن حَيَاتي وَكُلّ أعمَالي."

أنّ هيرودس كان في حالة سكر هذه المرَّة أيضًا، ليؤخذ برقصة سالومه، فيَعِدها بتلبية أيّ طلب لها... ولو كان نصف مملكته.

ولمّا حضر يسوع أمام هيرودس، اعتقد هيرودس أنّ يسوع يُسلِّي الجموع ببعض خزعبلاته. وعندما قابل يسوع مطالبه الغريبة بالصمت، جُنَّ جنونه فقال: «سأحكم على هذا الرجل المعتوه»! إنّ لي سلطاناً على حياته، وها هو يقف أمامي صامتًا. لقد فقد صوابه، فإنّه معتوه. أعيدوه إلى بيلاطس في ثوب مجنون».

مسكين هيرودس، كانت في أنفه حلقة، «حلقة اللذّة»، وكان ذاك مبدأ حياته، الحافز الذي يوجِّه كلّ قراراته، ويعطي حياته نمطها المميَّز. كان يعيش وكأنّ اللذّة تتحكّم في وجوده.

ومن ناحية أخرى، أرى بيلاطس بونطيوس مثال الإنسان الذي يعيش راغبًا رغبة جامحة في التسلُّط. قبل أن يحكم على يسوع ببضع سنوات، عيَّنته روما حاكمًا على اليهوديَّة والسامرة... وكالعديد من المشغفين بالسلطة، كان بيلاطس رجلاً قاسيًا جدًّا. فأثار الحسّاسيَّات الدينيَّة عند اليهود بإقامته تماثيل للأمبراطور. واختلس من الهيكل

coptic-books.blogspot.com

كنوزه ليبني بها قناة للمياه. وذبح بلا رحمة جماعة من الجليليّين كانت تصلّي. وخرّب قطعًا معدنيّة تحمل رسومًا وثنيّة مهينة. وقد دُعي مرّة إلى روما ليمثُل أمام المحكمة بتهمة القسوة والطغيان. وفي إحدى رسائله إلى كاليغولا، يصفه هيرودس إكريبا الأوّل «بالرجل الحديديّ الفاسد الذي لا يعرف قلبه الرحمة». وغالبًا ما اتُّهم بتنفيذ الإعدام من دون محاكمة. وفي تقليد غير مؤكَّد يقال إنّه، بعد أن حكم على يسوع بالموت، قتل نفسه بأمر من كاليغولا.

فما من شكّ في أنّ حياة بيلاطس توحي بأنّ السلطة كانت الهدف الأوّل في حياته. وليس صعبًا أن نتصوّره يدفع بجنوده البرابرة ليُنزلوا بالناس أكثر العقوبات وحشيّة، فيُظهر في ذلك ما لديه من قوّة، ويلقي الرعب في قلوب الناس. هو يعرف أنّه إذا نجح في مهمّته الحاليّة، فسوف يكافأ بمركز أرفع قدرًا وأعظم شأنًا. وهذا في الحقيقة كلّ ما يهمّه.

لذا عندما أُحضِر المسيح أمامه، فالتهمة التي وجّهها «المجمع» إلى المسيح، كونه ادّعى أنّه المخلِّص، ابن اللّه، لم تُذكر أبدًا. ولو ذُكرت لأُهمِلت، لأنّها لا تعني لبيلاطس شيئًا، فهو لم

يؤمن بالإله الواحد. لذا فالتهمة التي وجّهت إلى المسيح أمامه صمّمت خصّيصًا لإثارة رجل لا همّ له سوى سلطته: «لقد قال إنّه ملك». نعم هذا الذي يهمّ المسكين بيلاطس، فلو بلغ روما أنّ يهوديًّا بسيطًا يَدَّعي أنّه ملك، وأنّ بيلاطس لم يقمعه، لخسر هذا الأخير منصبه وقضى على طموحه السياسيّ، ونُزعت السلطة من يده. لذا قرّر أن يستجوب يسوع بنفسه.

فدعا يسوع وسأله: «أأنت ملك اليهود؟» إنّك لا تظهر بمظهر الملوك. أجاب يسوع: «نعم أنا ملك، ولكنّ مملكتي ليست من هذا العالم. أنا لا أُنافسك على مُلكِكَ... وأتيت إلى العالم لأشهد للحقّ. فكلّ مَن كان من الحقّ يصغي إلى صوتي».

فطرح بيلاطس آنذاك سؤاله الشهير: «ما هو الحق؟» وما همّ إن كان الحقّ بجانبك؟ السلطة هي المهمّة. بيلاطس لا يعترف بقيمة أُخرى غير السلطة.

ولكن يبدو أنّ شيئًا ما حدث لبيلاطس في لقائِه مع يسوع. لذا حاول أن يتجنّب الحكم عليه بالصلب. فعاد إلى شرفة قصره ليقول للجموع: «إنّي لا أجد فيه سببًا لاتّهامه». ولمّا ارتفعت الهتافات متتالية: «أُصلبه، أُصلبه، أُصلب هذا الجليليّ» . فظنّ

coptic-books.blogspot.com

بيلاطس أنّ يسوع جليليّ وتذكّر أنّ لهيرودس السلطان أن يحكم في أمور الجليليّين. فحاول التنصُّل بإرساله يسوع إلى هيرودس ليحكم هو في أمره. وعندما أُعيد يسوع إليه، حاول مرّة ثانية أن يجد ذريعة لإطلاقه. فقال للجموع من جديد: «إنّي لا أجد فيه سببًا لاتّهامه... فسأُعاقبه ثمّ أطلقه» ولكن ذريعته لم تجدِ نفعًا.

فخطر ببال بيلاطس مخرج آخر قد يؤدّي إلى إطلاقه، فعاد إلى الجموع وقال لهم: «جرت العادة عندكم أن أُطلق لكم أحدًا في الفصح». ثمّ عرض عليهم اسمين، يسوع وبرأبّا، وكان برأبّا مجرمًا معروفًا، لينتقوا واحدًا من الاثنين كي يطلقه، فانتقوا برأبّا. وبينما هو جالس على كرسي القضاء، أرسلت إليه امرأته تقول: «لا تتدخّل في قضيّة هذا البارّ، لأنّي عانيت اليوم في الحلم آلامًا شديدة بسببه». (متّى ٢٧/١٩)، فأحسّ بيلاطس بانزعاج كبير، وكان يحاول بكلّ ما أُوتي من حنكة

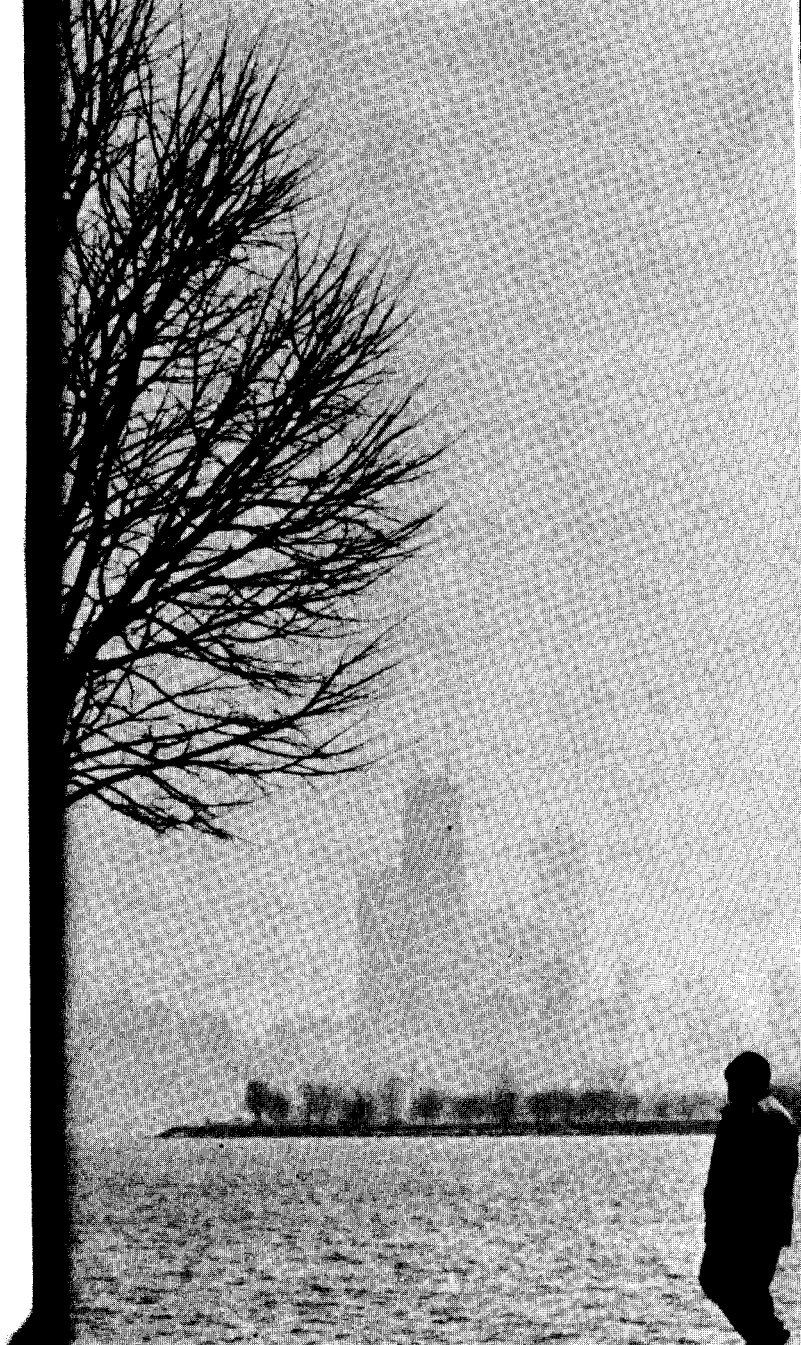

رُبَّما أَنِّي افتَقَرتُ فِي حَيَاتِي حَتَّى الآن
إِلَىٰ قُـوَّةٍ دَافِعَـة .

coptic-books.blogspot.com

أن يخلِّصه. فعرض من جديد أن يعاقب يسوع ويطلقه، ولكن صياح الجموع ما انفكّ يطلب موته.

وفي محاولة أخيرة لإنقاذ يسوع، قال بيلاطس للجموع: «أأنتم متشوقون لرؤية الدم؟ فسوق أريكم دمًا: «فأمر بأن يجلد يسوع ثمّ أوقفه مخضّبًا بدمائه، أمام الجموع وقال لهم: «أترون هذا؟ أنظروا إليه، إنّه بشر مثلكم». وأطلق مرة أُخرى إحدى صرخاته: «خذوه أنتم فاصلبوه، فإنّي لا أجد فيه سببًا لاتّهامه» يو (٦/١٩).

فصاحت الجموع: «إن أخليت سبيله، فلست صديقًا لقيصر، لأنّ كلّ مَن يجعل نفسه ملكًا يخرج على قيصر». يو ١٢/١٩

فقال لهم بيلاطس: «أأصلب ملككم»؟ أجاب الأحبار: «لا ملك لنا إلاّ قيصر». يو ١٥/١٩ - ١٦

فلفظ بيلاطس حكمه على يسوع آنذاك، وأسلمه إليهم ليُصلب. لقد تغلّبت هتافات الرعاع على رأي بيلاطس، لأنّهم عرفوا نقطة ضعفه، فأصابوا منه المكان الذي يؤلم؛ أوعزوا إليه بأنّ سلطته قد تُنزع منه، السلطة، السلطة، السلطة.

وفي حركة أخيرة ساخرة أخذ ماء وغسل يديه بمرأى من الجمع وقال: «أنا بريء من دم هذا الرجل». إنّ شغف بيلاطس بالسلطة تملّكه وقاده إلى أماكن

ما كان يريد أن يذهب إليها. بنى حياته كلّها على التهافت إلى السلطة، فما كان من السلطة في النهاية إلاّ أن هدَّمت حياته.

والشخصيَّة الإنجيليَّة التي تمثِّل، بل تجسِّد الإنسان الذي يسلك في الحياة مبدأ التهرُّب من مسؤوليَّته الذاتيَّة، هو مخلِّع بركة بيت ذانا:

«في أورشليم بركة عند باب الغنم، يقال لها بالعبريَّة بيت ذانا، ولها خمسة أروقة. يضجع فيها جمهور من المرضى بين عميان وعرج وكسحان. وكان هناك رجل عليل منذ ثمان وثلاثين سنة. فرآه يسوع مضجعًا، فعلم أنّ له مدَّة طويلة على هذه الحال. فقال له: «أتريد أن تشفى؟» فأجابه العليل: «يا ربّ، ليس لي من يغطّني في البركة عندما يفور الماء. فبينما أنا ذاهب إليها، ينزل قبلي آخر: «فقال له يسوع: «قم فاحمل فراشك وامشِ». فشفي الرجل لوقته، فحمل فراشه ومشى».

يو ٢/٥-٩

نحن في الواقع لا نعرف سوى القليل القليل عن هذا الرجل، وقد يكون في نظرتنا إليه بعض الإجحاف. ولكنّه يبدو وكأنّه يردّ سبب الحال التي هو فيها إلى تخاذل الآخرين في مساعدته. ويظهر كمَن فقد كلّ أمل، شأنه شأن العديد من الناس الذين يتهرّبون من تحمّل مسؤوليّتهم في الحياة. إنّه يتكلّم فقط عمّا لم يفعله الآخرون لمساعدته. وهو

coptic-books.blogspot.com

يبدو وكأنّه لم يفكّر أبدًا في ما يمكنه هو أن يفعل لينقذ نفسه. ما هو نقص فيه قد أعمى بصيرته عن قدرات الخلق عنده.

طرح المسيح عليه سؤالاً جعله يفكّر مستكشفًا أعماق مواقفه: هل تريد حقًّا أن تُشفى؟» من الناس مَن يرتاحون في المرض، جسديًّا أو نفسيًّا، هم ينعمون في حاجتهم إلى الآخرين. إنّها الطريقة الأسهل، إن لم تكن الوحيدة، التي من خلالها يؤمّنون الاتّصال بالآخرين. فالمرض يتحوّل أحيانًا إلى عذر للتخاذل والتكاسل. فالأكاديميّة الأميريكيّة للطبّ السيكوسوماتي تقدّر أنّ نحو ٩٢٪ من الأمراض الجسديّة تعود في أسبابها إلى واقع نفسيّ. يبدو أنّ العديد من الناس يفضّلون، عن وعي أو لا وعي، أن يستمرّوا في مرضهم، بل أن يرفضوا العلاج أحيانًا، فقط لأنّهم فقدوا الثقة في قدرتهم على مواجهة الحياة. إنّهم أضعف من أن يقبلوا التحدّي فيلجأون إلى عجز جسديّ أو نفسيّ يغطّون به ضعفهم. في المرض سلبيّة، أمّا الإيجابيّة ففي الالتزام. إنّهم آثروا السلبيّة على اقتحام معترك الحياة.

هناك العديد من الأعذار الأخرى نلجأ إليها لنبرّر

هروبنا من المسؤوليّة في الحياة. إنّنا ندع مخاوفنا أحيانًا وكذلك الشعور بالعجز الذي أوقعنا به أنفسنا، يحولان دون مجابهتنا لتحدّيات الحياة. أفعل ذلك ولسان حالي يقول: «أنا غير قادر» ولكنّي في الواقع أعني: «أنا غير مستعدّ أن أُحاول». يحضرني كلام أحد تلامذتي يشرح لي سبب انسحابه، قبيل الامتحانات النهائيّة، من كلّ المقرّرات التي سبق له أن التزم بها فقال: «من الأسهل عليّ ألاّ أُحاول من أن أُحاول وأفشل. فما دمت لم أُحاول أستطيع دائمًا أن أقول لنفسي معزّيًا: لو حاولت لربّما نجحت». أمّا إذا حاولت وفشلت، فقدت حتّى إمكانيّة التعزية تلك».

عندما نقرّر البحث عن أعذار لعدم الالتزام، فالمجال واسع إلى ما لا نهاية. «لقد خلقت هكذا، يقول أحدهم، فالمشكلة إذًا في ما أورثني الآخرون». ويقول آخر: «إنّ ما صرت إليه يعود إلى التربية التي تلقّيت». وآخر يلقي باللائمة على أصله الإتنيّ أو انعدام الوسائل لديه. والعديد من الناس أخيرًا يجدون المشكلة في النجوم. إستعمال التنجوم كمجال للهروب من المسؤوليّة الشخصيّة نهج قديم: إنّها طريقة للتبرير أثبتت خبرة الحياة حقيقتها.

coptic-books.blogspot.com

«الرجال أسياد مصيرهم أحيانًا. المشكلة يا عزيزي بروتس ليست في نجومنا، بل هي في أنفسنا...» (يوليوس قيصر ١ - ٢ - ١٣٤).

لا تحكم بل تفهَّم

ليس المهمّ أن نحكم من فوق، أو نمنّ بالشفقة من علوّ مركزنا المميَّز، على أولئك الذين استهوتهم اللذّة أو أغرتهم قصور السلطة. ولا أن نتعالى على أولئك الذين بدوا وكأنّهم آثروا الوقوف من الحياة موقف المتفرّج، بل المهمّ حقًّا هو أن أفهم مدى تأصُّل تلك المبادئ الثلاثة فيَّ وتأثيرها على طريقة عيشي.

فلندخل إذًا، أنت وأنا، إلى قدس أقداسنا، حيث لا نسمح بالدخول لأحد، ولنتساءل: «ما الذي نريده حقًّا من الحياة؟» «ما الذي يسعدنا في عمق وجودنا؟» أنت وأنا قد اعتنقنا مبدأ حياة قد لا يكون ظاهرًا للعيان. ولكن سيأتي يوم يكون هو رهاننا في الحياة. في النهاية كلّ منّا يراهن في حياته على أمر ما أو شخص يكون له السبيل إلى السعادة.

مبدأ الحياة المسيحيّ

في رواية الإنجيل لوقائع العشاء السرّيّ (العشاء الأخير)، يظهر المسيح مبدأ حياته للرسل ولكلّ الناس، بطريقة دراماتيكيَّة، موضحا بذلك شروط أن نكون له تلاميذ. فبعد أن كسر لتلاميذه خبز الحياة، خبز جسده، وقدَّم لهم كأس دمه، «وقع بينهم جدال في مَن يُعدُّ أكبرهم» (لوقا ٢٤/٢٢) بعد ثلاث سنوات من التلمذة على أكبر معلِّم روحيّ عرفته الدنيا، لم يُفلت تلاميذ المسيح من وطأة أوهامهم، بل مكثوا في صغائرهم تتجاذبهم المنافسة والأنانيَّة.

لذا وجد المسيح نفسه، في آخر ساعات حياته، يحاول للمرّة الأخيرة شرح محور رسالته، فغسل أرجلهم. وغسل أرجل الضيوف في التقليد اليهوديّ، رمز لتشرُّف المضيف بحضور ضيوفه. وإذا كانت الحال عكس ذلك، وحسِب الضيوف الدعوة شرفًا لهم، فلا يغسل المضيف أرجلهم، ذلك لأنّه أرفع قدرًا منهم. نذكر كيف أنّ المسيح، لمّا دُعِي إلى تناول الطعام في بيت سمعان الفرّيسيّ (لوقا ٧/ ٣٦ - ٥٠)، لم يلق منه ذلك الاحترام.

وفي أثناء العشاء الأخير، عشاء الفصح، «قام

coptic-books.blogspot.com

يسوع عن العشاء فخلع ثيابه، وأخذ منديلاً فائتزر به، ثمّ صبّ ماءً في مطهرة وأخذ يغسل أقدام التلاميذ، ويمسحها بالمنديل الذي ائتزر به. فجاء إلى سمعان بطرس فقال له: «أأنت يا ربّ، تغسل قدميّ؟ «فأجابه يسوع: «ما أنا فاعل، أنت لا تعرفه الآن، ولكنّك ستدركه بعد حين». قال له بطرس: «لن تغسل قدميّ أبدًا». أجابه يسوع: «إذا لم أغسلك فلا نصيب لك معي». فقال له سمعان بطرس: «يا ربّ، لا قدميّ فقط، بل يدي ورأسي أيضًا». يو ١٣/٤ - ٩

فخلال السنوات الثلاث التي قضاها مع تلاميذه، وغالبًا ما انفرد بهم يعلّمهم ويعدّهم للرسالة، دار حديث يسوع حول ملكوت اللّه. فقُسم كبير من الإنجيل كلام وأمثال عن الملكوت. وإذا أردنا البحث في تحديد الملكوت، فلا بدَّ من أن نشير إلى أمرَين:

الأوّل: الملكوت دعوة من اللّه. إنّها دعوة توجَّه إلى كلّ إنسان كي يدخل في علاقة حميمة مع اللّه. فكأنّ اللّه يفتح ذراعيه دائمًا بدافع من حبّ كبير ويقول: «تعالوا إليّ، سأكون لكم إلهًا وتكونون لي شعبًا...». هذه الدعوة لم توجَّه إلينا فقط كأشخاص، كلّ بمفرده. في ملكوت اللّه لا نكون أبدًا أقلّ من أشخاص، كما أنّنا لا نكون أبدًا مجرَّد

أفراد. نحن جسد المسيح ونحن مدعوّون لتقبُّل محبّة اللّه كجماعة أُخوة وأخوات. لقد كتب الشاعر الفرنسيّ شارل بيكي، Charles Péguy، يقول: «لا تحاول أن تذهب إلى اللّه وحدك. فإذا فعلت، سيطرح عليك السؤال المحرج: «أين إخوتك وأخواتك؟»». فالدعوة إلى الملكوت وجِّهت إلينا إذًا كجماعة. باستطاعتي أن أقول «نعم» للربّ، فقط إذا قلت «نعم» لكم أنتم إخوتي وأخواتي. «فالنعم» التي توجَّه إلى اللّه، هي نفسها توجَّه إلى كلّ بشر، وذلك كلّه من خلال عمل الحبّ نفسه.

الثاني: ملكوت اللّه يعني استجابة حرّة من قبلنا لدعوة اللّه. «لقد جاء في الكتاب، إنّ سعادتي هي أن أعمل مشيئتك يا اللّه. فهاأنذا آتٍ... مسرعًا!» عندما نقول في الصلاة الربِّيَّة: «ليأت ملكوتك»! نحن نصلّي ليستطيع كلّ منّا أن يقول «النعم» الكبرى للّه (مع كلّ ما تعني من التزام بصغائر الأمور وكبرياتها) ومن التزام بالآخر وباللّه.

هذا، في نظري، ما أراد يسوع أن يوضِّحه لبطرس ولتلاميذه. فطيلة حياته معهم، ولا سيَّما في أثناء العشاء السرّيّ، في اللحظات الأخيرة من وجوده معهم، أراد أن يشدِّد على الحقيقة التالية: إنّ

coptic-books.blogspot.com

مملكتي مملكة حبّ! لا مكان فيها للمنافسة والتسلُّط. ولا هي مرتع للذّة ولا ملجأ لمَن يرفض مجابهة الحياة. فالشرط الوحيد لدخول الملكوت إنّما هو اعتناق الحبّ كمبدأ للحياة. وهنالك علامة واحدة تشير إلى هويَّة المسيحيّ:

«إذا أحبَّ بعضكم بعضًا عرف الناس جميعًا أنّكم تلاميذي». يو ١٣/٥

هذا ما حاول يسوع تبيانه لبطرس عندما قال له: «إذا لم أغسلك فلا نصيب لك معي». يو ١٣/٨. فالسلطة الوحيدة في ملكوتي هي سلطة الحبّ! وعلى أثر جدالهم السخيف في مَن هو الأهمّ بينهم، غسل يسوع أرجلهم، تاركًا معهم رسالة تذكير مهيبة:

«إنّ ملوك الأمم يسودونها، وأصحاب السلطة فيها يريدون أن يُدعَوا محسنين. أمّا أنتم فليس الأمر فيكم كذلك، بل ليكن الأكبر فيكم كأنّه الأصغر، والمترئس كأنّه الخادم.

أنا أَسْتَطيع أن أقول "نَعَمْ" للّه،
فَقَط إذا كانَ بإمكاني أن اقول "نَعَمْ" لَكَ أنتَ
يَا أخِي، وَلكِ أنتِ يَا أُختِي.

فمَن الأكبر؟ أمَن جلس للطعام أم الذي يخدم؟ أمّا هو الجالس للطعام؟ ومع ذلك فأنا بينكم في حال الذي يخدم». لو ٢٢/ ٢٥ - ٢٧ . ويريد يسوع أن يتأكّد أنّ الأمثولة قد بلغت إليهم. يبدو أنّه وجد لدى الرسل صعوبة في الفهم كالتي أجدها غالبًا في نفسي - فهو يسأل الرسل في إنجيل مرقس سبع عشرة مرّة (حدث لي أن عددتها مرّة): «ألم تفهموا بعد»؟ ويكتب يوحنّا:

«فلمّا غسل أقدامهم لبس ثيابه وعاد إلى المائدة فقال لهم: «أتفهمون ما صنعت إليكم؟ أنتم تدعونني «المعلّم والربّ» وأصبتم فيما تقولون، فهكذا أنا. فإذا كنت أنا الربّ والمعلّم قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أيضًا أن يغسل بعضكم أقدام بعض. فقد جعلت لكم من نفسي قدوة لتصنعوا أنتم أيضًا ما صنعت إليكم».

الحقّ الحقّ أقول لكم: ما كان العبد أعظم من سيّده، ولا كان الرسول أعظم من مرسله. أمّا وقد علمتم هذا، فطوبى لكم إذا عملتم به».

يو ١٣/١٢ - ١٧

عليَّ أن أطرح على ذاتي السؤال نفسه مرّة بعد مرّة: أتراني أفهم حقًّا؟ أتراني أؤمن حقًّا أنّ يسوع دعاني لأتّخذ من الحبّ، مبدإه في الحياة، مبدأ

لحياتي؟ أتراني أفهم حقًّا أنّ هذا الالتزام هو الطريق الوحيد إلى السعادة الحقيقيّة؟ تلك هي الأسئلة التي تبقى الأجوبة عنها راقدة في عمق ذاتي. وعليّ أن أُحاول البحث عنها حيث هي. وهذه، بالنسبة إليّ، قضيّة حياة أو موت.

coptic-books.blogspot.com

- ٢ -

أزمة الحب المعاصرة

إنّ الأزمة في أيّامنا ،
كما بدأنا نشعر بها ببطء وألم ،
ليست أزمة إنتاج
إنّما هي أزمة حُبّ .
إنّها لم تُصِب منّا الأيدي ،
بل أصابت القلوب .

أرشيبولد مكليش

coptic-books.blogspot.com

الكاتب الإنكليزيّ جيلبير كيث شسترتن، Gilbert Keith Chesterton. قال مرّة: إنّ قضيّة التبشير بالإنجيل، (الخبر السارّ) مزدوجة. أولاها أنّه لا يبدو خبرًا جديدًا للعديد من الناس، فقد سمعوه مرارًا من قبل. وثانيها أنّ غالبيّة الناس لا تجد فيه «الخبر السارّ».

أنا أشعر في أعماق نفسي أنّ في هذا القول الكثير من الحقيقة. فالعديد من المواعظ التي إليها نصغي تأتي بعيدة كلّ البعد عن هموم الناس الحياتيّة، والمُثُل التي تدعو إلى تحقيقها تفوق قدرة كلّ الناس، إلى حدٍّ يتحتّم فيه الفشل، مع كلّ ما يتبع الفشل من شعور بالذنب. أنا، بالطبع، لست من المنادين بالمساومة في روح التضحية وفي المبادئ الأدبيّة. فلو فعلت لكان ذلك أسوأ من كلّ شيء.

فالسؤال المطروح هو الآتي: هل الحبّ هو في

الحقيقة السبيل إلى اكتمال الذات؟ إذا اخترت الحبّ كمبدأ حياتي الشخصيّة، أتراني أشعر برضى، وأحسّ بنشوة حقيقيّة؟ وهل كلّ ما يقوله الإنجيل في الحبّ يصمد حقًّا أمام تجربة الحياة؟ إذا بحثت عمّا يريحني أنا ويسعدني، أتراني في الحقيقة أفقد الفرح والسعادة كليهما، وهل لحبّة الحنطة حقًّا أن تقع في الأرض وتموت قبل أن تبلغ سعادتها وملء الحياة؟ وهل تطويب الإنجيل للكفر بالذات والحبّ من دون شروط هو السبيل إلى الفرح الحقيقيّ؟ هنالك، ولا شكّ، أسئلة عمليّة عديدة، أسئلة تثير اليوم الكثير من الجدل.

في اعتقادي أنّ هذه هي الأزمة الكبرى التي تواجه المجتمع المعاصر. هل حياة الحبّ، تلك التي تحتّم التزامًا من دون شروط بشخص آخر، هي في الحقيقة الطريق الشخصيّ الصحيح إلى الكمال البشريّ؟ أم أنّ على الإنسان أن يبقى حرًّا، بعيدًا عن أعباء مثل تلك العلاقات. فيكون المجال أمامه فسيحًا ليختبر اللذّة والسلطة وكلّ ما يمكن للحياة أن تقدّم له عدا ذلك؟ هل أنّ التهافت على إشباع الرغبات الشخصيّة أفضل نهج لتحقيق الذات، أم ترى المعنى العميق للحياة يُحقَّق من خلال الالتزام

coptic-books.blogspot.com

بعلاقة حبّ دائمة؟ أألزم ذاتي وكلّ حياتي بصراحة وثبات، أم تراني أفضّل تجنّب اتّخاذ قرارات تقيّدني «إلى الأبد»؟.

رفض الحبّ

إنّ المجتمع المعاصر لم يطوِّب الحبّ كمبدأ للحياة، وسبيل إلى تحقيق معنى لها. بل إنّ المكتبات تعجّ بالكتب التي تحاول أن تدحض ذلك. ففي طرق العيش التي يعتنقها العديد من الناس اليوم، كما في تبريرها، تساؤل ملحّ ومستمرّ حول واقع - بل إمكانيَّة - وجود حبّ حقيقيّ دائم. يصدر العديد من الكتب اليوم، ومن أكثرها رواجًا تلك التي تنادي بضرورة اعتناق السبل التي تشبع لذّة الإنسان وتلبّي كلّ رغباته في الحياة. فالذهنيَّة السائدة تتجسّد في سؤال يُطرح دائمًا بإلحاح: ما الإفادة لي من ذلك؟

نتيجة لتلك الفلسفة، أخذ العديد من الناس يعيدون النظر في تقويم نهجهم في الحياة. إنّهم يعيشون خبرة حياتهم الآن بالمقياس الجديد: ماذا تراني جنَيت من الحياة لنفسي؟ لذا فإنّ أعدادًا مخيفة من الناس يغرقون في مستنقعات تملأها كآبة

الندم المتأخّر على حياة عاشوها، ووظائف التزموا بها، وعلى زواج عقدوه وعائلة كوَّنوها. إنّهم يشعرون وكأنّهم أخذوا على حين غرّة، فوقعوا فريسة احتيال ما، حرمهم الكثير من حقّهم في السعادة ولذّات الحياة. «أنت تأتي إلى الحياة مرّة واحدة، فعليك أن تغرف منها ملء ما تطوله يداك... وتحتفظ به لنفسك». ينظرون إلى ما طالت يداهم، فيشعرون بقلق، ويعيشون في هاجس الخوف من أنّ «القطار قد سبقهم» وقد مرّت بهم، من غير رجعة، لذائذ عيش كان من حقّهم على الحياة أن يحسنوا الإفادة منها. إنّ في أعماقهم حزنًا وتحسّرًا وتساؤلاً عن سبب ذاك الخلل عندهم. وتتوالى على شفاههم تساؤلات حزينة: أترى هذا كلّ ما في الحياة؟

ولقد تهافت العديد من الكُتّاب ينتهزون الفرصة، يُقدِّمون النصائح صفحات متتالية، في أفضل السبل لإشباع الرغبات الشخصيَّة وتحقيق الذات. «سأحوِّل هذه الحجارة خبزًا... سأحرِّرك من التخبُّط في التزاماتك ومسؤوليّاتك الشخصيَّة!» لقد قدّم أولئك الكُتّاب كلّ التعليمات عن طرق الاهتمام بالشخص الأهمّ (أنا، أنا، أنا!) وعن سبل

coptic-books.blogspot.com

الوصول إلى السلطة والحفاظ عليها، لا سيَّما من خلال إلقاء الرعب في نفوس الآخرين. لقد أعطوا المجد، كلّ المجد، «للفضائل» الأنانيَّة. وصوّروا الحياة وكأنّها سباق في قطع الأعناق ينتهي فيه «الخيّرون آخِرين!» وأغرقوا في الكتب التي تتطرَّق إلى دقائق الأمور الجنسيَّة جيلاً كان الجنس قد خَيَّم على حياته، علَّهم يزيدونه لذّة فوق لذّة.

هؤلاء الكتَّاب أنزلوا الحبّ والزواج والعائلة إلى مرتبة «الأفكار العتيقة». فالشائع اليوم طرق خلاّقة في الطلاق؛ كيف يمكن أن ينجم عن موت علاقة عميقة واقع جديد جميل ومريح. ولقد ذهبت جماعة إلى حدّ ابتكار «احتفال» بالطلاق. ويحاول هؤلاء الكتَّاب أن يدفعوا بنا إلى اقتلاع جذورنا القديمة لتُخلق فينا ذاتٌ جديدة مثيرة! ولطالما أَلحّوا علينا كي نُسلِّط الانتباه على ذواتنا، فنكون أحبّاء أنفسنا الآن وإلى الأبد.

العَديدُ مِنَ المواعِظِ الّتي إليها نُصْغي
تأتي بَعيدةً كلّ البُعْدِ عَن هُموم الناسِ الحَيَاتيَّة.

coptic-books.blogspot.com

وراء كلّ تلك الاقتراحات قناعة بأنّ اكتمال الذات يأتي نتيجة التهافت وراء السعادة الشخصيَّة. ولتحقيق تلك السعادة، وجب التحرّر من وعود قمنا بها، ومسؤوليَّات بها التزمنا. وتحتِّم الإفلات من عهد مودَّة قطعناه، ومن كلّ ما للآخرين من حقوق على حياتنا وحبّنا. فحمل هذا العديد من الرجال والنساء على النظر إلى أزواجهم وعائلاتهم وكأنّهم عقبات في سبيل تحقيق ذواتهم.

فأفضل ما يمكن لتلك الكتب أن تحقِّق، تجريد الإنسان من ميزاته الإنسانيَّة. وأسوأ آثارها عذابات تقضّ مضاجع الناس. وهي، في كلّ حال، جزء من حملة تبرير لخلق حضارة تتمحور حول «الأنا». إنّها تقع في أبعد نقطةٍ عن الالتزام بالحبّ من دون شروط. وراء هذا التعبُّد «لتحقيق الذات» يظهر ادِّعاء بأنّه في الالتزام والأمانة للعهد، يتخلّى الإنسان عن فرديّته وهويّته الشخصيَّة.

في اعتقادي أنّ هذا خطأ، وأنّ العكس في الحقيقة هو الصحيح. فما من علاقة عميقة تُبنى، وما من أمان يشعر به الإنسان، ومن خلاله ينمو، إلاّ إذا عرف كيف يكون أمينًا لوعد قطعه على ذاته، وحبّ ألزم به نفسه.

التعبُّد للاختبار والالتزام من دون شروط

من الطبيعيّ أن يعمل كلّ منّا، من وقت إلى آخر، على تفحُّص مسيرة نموّه وتحقيق ذاته.

إنَّ السؤال: «أأنا حقًّا سعيد في حياتي؟» يمكِّنني من تقصّي معلومات قيِّمة تصلني بأجزاء من ذاتي لم تتحقّق بعد. وإذا اكتشفنا في ذواتنا بعض الفراغات المؤلمة وجب علينا أن نعيد تقويم مواقفنا، وربّما تصحيح توجيه قدراتنا، هذا لم يكن يومًا موضع خلاف.

فالقضيَّة في أساسها، والمشكلة في عمقها تتلخَّص بالآتي: هل إنّ تحقيق ذواتنا يأتي من خلال عيشنا أكبر عدد ممكن من الخبرات؟ وهل صحيح أنَّ نموّ الإنسان رهن بعدد الخبرات التي يعيش؟ أم العكس هو الصحيح؟ أي أنّ اكتمال الإنسان يتحقَّق من خلال التزام يصبح أساسًا لانتقاء خبرات تساعد على تحقيق ذاك الالتزام وتثبيته؟

أن نحاول الإفادة من كلّ الخبرات المتاحة لهو أشبه بمَن يخلط زيتًا بماء، فهما لن ينسجما. فالنتيجة ارتباك للشخص البشريّ وتفتيت له وانحلال. إذا شئنا أن نعيش الحياة بملئها، وجب أن

coptic-books.blogspot.com

نبحث عمّا في الحياة من نظام ومعنى، وهذا ينطوي على سلّم للقِيَم، وعلى أوّليّات. وفي ضوء تلك القِيَم والأوّليّات نقوّم خبراتنا. أودّ أن أقتطف هنا مقطعًا في الإيمان من كتابي: «سبب للحياة وسبب للموت».

«أن يحاول المرء الانفتاح على كلّ الخبرات الممكنة، فذلك سيحدث الكثير من الاضطراب الداخليّ والانقسامات الذاتيّة. فإذا قرّر رجل أن يكون زوجًا ووالدًا مثاليًّا، أن يكون أمينًا لالتزامه بالزواج، تصبح أيّة خبرة جنسيّة مع نساء أُخريات سببًا لانقسام في قلبه وفي روحه. وإذا عقد العزم إنسان على أن ينمو من خلال صلته بالواقع، وهذه أفضل سبل النموّ، فخبرة السكر أو تعاطي المخدّرات قد تقضي على نموّه الشخصيّ بشكل تامّ».

كَلِمَات خَيْبة تَتَرَدَّدُ ببطءٍ وَحزن:
أهٰذا كُلّ مَا فِي الحَيَاة؟

فمَن أراد بالتالي أن ينمو حقًّا، وجد نفسه ملزمًا بالتخلّي عن بعض الخبرات، كي يتاح له أن يعمّق اختباره للقِيَم التي من شأنها أن تحقّق له ما يصبو إليه. فإذا ما قرّرنا ما نريد أن نكون، وما نريد أن نفعل، وجب علينا اختيار الخبرات التي عنها سنبحث، فننتقي تلك التي تخدم أهدافنا ونعرض عن سواها ممّا يعرّضنا للضياع».

فإذا ما اعتنقت مبدأ الحبّ غير المشروط في حياتي، فذلك يعني أنّي حلت بين ذاتي وبين خبرات ربّما كانت من حقّي لو لم أفعل. فالرجل الذي قرّر اختيار زوجة له مثلاً، حرم نفسه من إمكانيّة اتّخاذ أيّة امرأة أُخرى زوجة له أو رفيقة حياة. إنّه الحرمان هذا هو الذي يخيفنا عندما نُقدِم على التزام ما. الالتزام أشبه بكلّ من لحظات الحياة: ففي كلّ لحظة ولادة وموت. شيء يوجد وآخر يخرج من الوجود بلا رجعة. هناك اختيار واستسلام، هناك «نعم» وهناك «لا». فالحبّ مكلف حقًّا.

أن نحبّ من دون شروط فذلك رهان حياة. ونحن إذا ما التزمنا بالحبّ، لا يمكننا بعد ذلك أن نلتفت إلى الوراء. عند هذا الحدّ يتعثّر العديد

ويسقطون. على قاب قوسين من العظمة تخونهم العزيمة أمام فكرة اللاعودة. فسالكو هذه الطريق في الحقيقة قلّة.

الطريق التي لم تسلك

في غابة صفراء افترقت طريقان،
وأسفاه ما تمكّنت سلوك كلتَيهما.
وحيدًا، أنا المسافر، وقفت طويلاً
وإلى البعيد البعيد أطلقت نظري في طريق
حتّى التوت وفي اللاشيء توارت.
فسلكت الطريق الأخرى، وكان في ذلك حقّ وعدل،
وقد اخترت ما ظننته الأفضل،
فالأولى رحبة وكأنّها تصيح وتدعوني!
ألذلك، ترى بَرَتها الأقدام،
وهي بَرَت من الأقدام قدرًا مماثلاً؟
فالطريقان، ذاك الصباح، امتدّتا
تغطّيهما أوراق شجر لم تمسّها رِجْل بشر.
آه! تركت الأولى ليوم آخر!
وبخوف ووعي سلكت الأخرى وفي نفسي خشية وشكّ «كبير».

coptic-books.blogspot.com

ولكنّي، في مكان أَجهله وزمن قد تفصلني عنه أَجيال،
سوف أُردِّد، وفي نفسي ارتياح وسلام:
طريقان افترقتا في غابة، وأنا
سلكت تلك التي قلّ مَن مشاها،
وهذا أحدث فرقًا، كلّ الفرق، في حياتي.

روبير فرست Robert Frost

فالتوق إلى الاختبار يدفعنا ألى أن نغرف من الحياة كلّ ما نستطيع، ونحن في هذا العالم سائحون. ولكن هذا في الواقع غير ممكن، وهو يقودنا، إذا حصل، إلى اضطراب داخليّ، ويتركنا في حال تفكُّك قد يتعذّر علينا الخروج منها. فتتحطّم أحلامنا وتتبدَّد آمالنا. وإنّ مَن استمع إلى محبِّذي هذا النهج والذين يحاولون تسويته، شابه إنسانًا يتوق إلى الإفادة من كلّ شيء فلا يفيد في النهاية من شيء. وهذا يُذكِّرني بمَا كَتبَته سلڤيا بلاث Sylvia Plath في مثل هذا الشخص:

شعرت وكأنّي حصان سباق في عالم ليس فيه ميدان للسباق، وكبطل في فريق كرة قدم وجد نفسه فجأة في مقرّ بورصة نيويورك وهو يرتدي بدلة رجل أعمال. فتقلّصت أيّام مجده لتقتصر على كأس ذهبيّة حقيرة داخل خزانة، حُفر عليها تاريخ كالذي ينقش على بلاط ضريح.

رأيت حياتي تورق أمام عيني وكأنّها التينة الخضراء في القصّة.

ففي طرف كلّ غصن، وكتينة أرجوانيّة كبيرة تدلّت، أَزْهر مستقبل عظيم. واحدة مثّلت عائلة سعيدة، وأُخرى شاعرًا مشهورًا وثالثة أستاذًا لامعًا، ورابعة ناشرًا كبيرًا. وتينة أُخرى مثّلت أوروبّا وإفريقيا وأميركا الجنوبيّة، بينما كانت تينة أُخرى تمثّل سقراط وقسطنطين واتيلا وعاشقين آخرين، أسماؤهم غريبة ومشاغلهم غير عاديّة... وغير تلك كلّها تينات أُخرى عديدة ما تمكّنت أن أفهم ماذا تمثّل.

وجدت نفسي جالسًا في قلب شجرة التين تلك، وأنا أكاد أموت جوعًا، لأنّي لا أستطيع أن أُقرّر أيّة تينة أريد أن آكل. أودّ تناول كلّ تينة على تلك الشجرة، فإذا انتقيت واحدة ضحّيت بما تبقّى.

فقبعت هناك لا قدرة لي على القرار، وراحت التينات تذبل وتيبس واحدة تلو الأخرى، حتّى تساقطت كلّها على الأرض من حولي».

فالخيبة الكبرى، والألم الذي يلازم هذا التوق إلى الاختيار ، تكمن كلّها في أنّنا نجد أنفسنا، في النهاية، نعاني من الفراغ نفسه الذي أوهمنا أنفسنا بملئه. فالطبيعة البشريّة تأبى الفراغ؛ ولكن عندما يلجأ أُناس فارغون إلى المأكل والشراب والعيش المرح كسبيل إلى تحقيق الذات، تأتي الخيبة عندهم أشدّ إيلامًا من الجوع. وآلام الخيبة تلك تطول فيتحوّل ذلك الفراغ إلى إفلاس كلّيّ. إنّه مثل نورس يحوم فوق مياه البحر المشرقة، ينقضّ على المياه المنعشة وكأنّها فريسة مليئة باللذّة. وعلى سطح مياه اللذّة لمعان دائم، ولكن هذا اللمعان، بكلّ أسف، سرعان ما يتبدّد، فنعود إلى وجه الماء والرمل يملأ أفواهنا.

ترف إزاء حياة حلوة

لا الكمال الإنسانيّ ولا الاكتفاء الحقيقيّ يُقاس بمقياس «المرح». ولو فعلنا لسقطنا في السطحيّة عينها. ولا هي تقاس بعدد اللحظات التي نُحسّ

coptic-books.blogspot.com

عن الاحترام الحقيقيّ العاقل الذي يأتينا من أُولئك الذين نحبّ!»

أن أهِب ذاتي في الحبّ، فذلك يخلق لديَّ شعورًا بالفرح عميقًا بأنّني جعلت حياتي تثمر ثمرًا مهمًّا. ويمكنني أن أعيش ولديَّ ذكريات جميلة وفرح بأنّي أسهمت في إنعاش حياة أُناس آخرين بالحبّ، وأنّي قد أحسنت التجارة بالوزنات التي ائتمنني اللّه عليها. تحقيق الحبّ يتطلَّب وقتًا، وهو يفرض لذلك تاريخًا من العطاء والأخذ، من الضحك والبكاء، من الحياة والموت. إنّه لا يَعِدُ أبدًا بسعادة آنية بل بشعور بالاكتمال الذاتيّ في نهاية المطاف. الحبّ يعني إيمانًا بشخص أو بقضيَّة. إنّه يفترض إرادة للصراع، للعمل وللعذاب، وإنّه مشاركة في الفرحة أيضًا. أنا لا أعتقد أنّ بشرًا في التاريخ بلغ كمال ذاته من خلال العيش في همّ واحد: «ماذا تراني آخذ من الحياة»؟.

إنّها طبعًا معادلة الإنجيل: فالاكتفاء الحقيقيّ واكتمال الذات هما نتيجة حبّ صادق مخلص. وهذه كلّها ملك لأولئك الذين يعرفون كيف يتخطّون ذواتهم، ولا يستطيع اختبارها إلاّ مَن يؤثر العطاء على الأخذ.

coptic-books.blogspot.com

فيها بنشوة في كلّ يوم نعيشه. والسعادة أخيرًا لا تأتي نتيجة حياة خالية من المتاعب. المرح والنشوة وغياب المتاعب كلّها جميلة في ذاتها، ولها في كلّ حياة مكانها ولكنّها وحدها ولو تراكمت، تبقى عاجزة عن البلوغ بالإنسان إلى كماله وإعطاء معنى لحياته.

إنّ معنى الحياة يمكنه أن ينبع فقط من خبرة حبّ. وهذا يعني التزامًا صادقًا بشخص آخر. الحبّ يرفض أن يسأل: «ماذا تراني آخذ من الحياة»؟ إنّ خبرة الحبّ توضّح للإنسان تلك العبارة من القدّيس فرنسيس الأسيزيّ، التي غالبًا ما نسمعها: «إنّنا نأخذ فقط عندما نعطي». الأنانيّة والتركيز على الذات يقودان فقط إلى فقدان الذات. تلك هي معادلة غريبة ومؤلمة، يجب أن نفطن لها. إنّ أعمق ما كشفته الشخصانيّة المعاصرة، هو أنّي شخص أبلغ ملء ذاتي فقط إذا ما أنعم عليّ شخص آخر بهبة «تثبيت ذاتي». فإذا ما أحجم الآخرون عن تقديري، تعذّر عليّ أن أُقدِّر ذاتي. فعالِم النفس فكتور فرنكل Victor Frankl ـ قدَّم في هذا المعنى نصيحة فائقة الأهمّيّة عندما قال: «إنّ الاحترام الحقيقيّ للذات، والشعور بهويّة شخصيّة، ينجمان

coptic-books.blogspot.com

نحن نخلط أحيانًا بين «الترف» و«الحياة الحلوة». ومَن ظنّ أنّ باستطاعة المرء أن يعيش في «ترف» لا ينتهي، وقع في خطأ فادح. وقدَر مَن يعيش في مثل هذه الأوهام، الاصطدام بالحزن والخيبة، والعيش في حسرة توقّعات لن ترى النور. ففي كتاب ج. مارين كنكت G. Garion Kinget بعنوان «في الكيان البشريّ للإنسان» **On Being Human** نقرأ:

«ينظر العديد من الناس إلى حياتهم وخبرتهم نظرة إيجابيّة، وهم نادرًا ما يعرفون ما نسمّيه مرحًا وانشراحًا. وإنّ غالبيّة الذين تعمّقوا في دراسة هذا الأمر، يرون الكثير من الإيجابيّة في حياة أشخاص من أمثال أبراهام لنكلون، غندي، لويس بستير، ألبيرت شفيتزر، دوروتي ديكس، ديتريخ بنهفّر، البابا يوحنّا الثالث والعشرين، مارتن بوبر ومارتن لوثر كنغ . وما مَن يظنّ أنّ أحدًا من هؤلاء تمتّع بحياة

إنّ الشّعورَ بالفـراغِ المُؤْلِمِ ذاتـه يَسْتَمِرّ فينـا ،
ذاكَ الفَـراغِ الذي أوْهَـمْنا أنفُسَنا دومًا
بالقُـدرةِ علَى ملْئِهِ .

coptic-books.blogspot.com

من الترف. فإفساد فكرة «الحياة الحلوة» بالخلط بينها وبين «حياة الترف» يلقي على الموضوع غشاء من الظلمة فيشوِّهه».

«أعمل ما يحلو لي» إزاء «الشراكة بيني وبينك»

إنّ الصراع بين اكتمال الذات الذي يُبحث عنه، وذاك الذي يأتي نتيجة طبيعيَّة لحياة محورها الحبّ، يشكِّل الأزمة الكبرى التي تواجه مجتمعنا اليوم.

لقد صوَّر شاعران بعضًا من الروحيَّة التي تتحكّم بهذَين الموقفَين. أوّلهما فريتز بيرلز، Fritz Perls، إذ قال:

«أعمل ما يحلو لي، وتعمل أنت ما يحلو لك

فأنا ما أتيت إلى الدنيا كي أعيش كما تنتظر أنت منّي،

إن حَياة اللذّة تَبدو دائماً وَعلى سَطْحِهَا لمعان...
وَلكِن، وَيَا للأسَفْ، سرعَانَ مَا يتَبَدّد هذا اللمَعان
إذا تعمّقنا في تِلكَ المِيَاه بَعضَ الشّيء.
وَإذا فَعَلنا سَوفَ نَعود إلى سَطْحِ المِياه وَفي أفواهنا رَمْل.

coptic-books.blogspot.com

ولا أنت هنا كي تعيش كما أنتظر أنا منك.

أنت تكون ذاتك وأنا أكون ذاتي؛

وإذا حدث أن وجد أحدنا الآخر،

فذاك جميل جدًّا،

وإذا لم يحصل ذلك، فلا حول ولا قوّة.

تُظهر هذه الأبيات بوضوح حاجة الإنسان إلى الاستقلاليّة والتعبير عن ذاته. لي أفكاري ومشاعري ولي الحقّ في أن أُعبّر عنها بحرّيّة. وعليّ أن أكوّن قناعاتي، وأستجمع قواي كي أسلك على هديها. تلك كانت، ولا شكّ، الأهداف العمليّة النبيلة التي ملأت ذهن فريتز بيرلز. وأنا على يقين أنّه أراد، من خلال أبياته، أن يُظهر جانبًا مهمًّا من العلاقة: فأكّد موقفه ضدّ الاتّكاليّة من جهة وضدّ تحويل العلاقة إلى استئثار بالآخر من جهة أُخرى. فالاتّكاليّة والاستئثار كلاهما بعيد كلّ البعد عن الحبّ الحقيقيّ.

ولكن أبياته تفسح المجال في الوقت نفسه للانتقاد. فإذا ما أخذت كما هي، فقد تظهر وكأنّها تنادي «**بالذاتانيّة**» وبالشعار القائل: «دع كلّ

إنسان يعيش على هواه». وهذه النظرة تتجاهل أنّنا أُناس تجمع بيننا علاقات، وأنَّ كلاً منّا مرتبط في عمق كيانه بالآخر. لذا لا يمكنني أن أعيش على هواي، من دون أن تتأثّر أنت بذلك. لا حقّ لي أن أشعل «سيكاري» الكبير بحضورك إذا كان ذلك يسبّب لك المرض.

وهذه «الذاتانيّة» تتجاهل حقيقة بالغة الأهمّيّة، تتناول الوجود البشريّ: الإنسان يكون مع الآخرين أو لا يكون. فحياة الإنسان واكتماله الذاتيّ مرتبطان في الأساس بالعلاقة مع الآخرين. إنّ قناعة بيرلز تُظهر حاجة الإنسان إلى الاستقلاليّة، ولكنّها تتجاهل حاجته إلى علاقة حقيقيّة عميقة مع الآخرين. وهو يعرض عن الدفء والاهتمام الشخصيّ، والشعور مع الآخر والالتزام به، وكلّها في صميم الحبّ الذي هو بدوره في أساس كلّ نموّ شخصيّ.

فما أضافه العالِم النفسي ولتر تابس، Walter Tubbs، واضح كلّ الوضوح. إنّه يكمّل تفكير بيرلز ويقوّم اعوجاجه، فيقدّم فكرة أكمل وأشمل عن الواقع البشريّ. فالاكتمال الذاتيّ الحقيقيّ لا يتمّ إلاّ من خلال الحبّ: «الحقيقة تبدأ مع اثنين».

coptic-books.blogspot.com

«إذا عملت أنت ما يحلو لك وعملت أنا ما يحلو لي، أخشى أن يضيِّع أحدنا الآخر، فنضيع كلانا.

فأنا ما أتيت إلى الدنيا كي أعيش كما تنتظر أنت منّي؛ بل أنا هنا لأُعزِّزكَ كإنسان فريد، ولتثبِّتني أنت بدورك.

فأنت وأنا لا نحقِّق ذواتنا إلاّ من خلال علاقة أحدنا بالآخر؛

فإذا انفصل «الأنا» عن «الأنت»، فمصيرنا إلى الزوال.

أنا لا ألتقيك صدفة؛ بل من خلال جهد كبير وانفلات من ذاتي. فبدلاً من أن أدع الأمور تسير على هواها وتؤثِّر عليّ، بإمكاني أن أبدأ في نفسي، هذه حقيقة؛ ولكن يجب ألاّ أنتهي في نفسي، الحقيقة تبدأ مع اثنين».

coptic-books.blogspot.com

- ٣ -

مَعْنَى الحُبّ

« ... وَحْدَهُ القَلْب
يُبْصِرُ جَيِّدًا ؛
فالأمُور المُهِمَّة
لا تَرَاهَا العَيْن ».

أنطوان ده سانت أكزيبري
« الأمير الصّغير »

coptic-books.blogspot.com

أودُّ أن أُلخِّص هنا بعض ما قلته بشكل تفصيليّ في كتاب آخر، «سرّ الاستمرار في الحبّ». من المهمّ أن يواكب الحبّ بعض الشعور، ولكنّ الحبّ نفسه ليس بشعور. ولو كان كذلك، لغدا عرضة لتقلُّبات كثيرة، والذين يحسبونه هكذا، يعيشون في حال من التقلُّب المستمرّ. الحبّ قرار والتزام، وأنا مدعوّ، كمسيحيّ، إلى أن أُحبّ جميع الناس. وهذا يعني أنّه عليَّ أن أحترم كلّ شخص ألتقيه، على قدر المستطاع، فينمو ويحقّق السعادة التي يبحث عنها. من غير الممكن أن ندخل في علاقة حبّ مع كلّ الناس. لذا عليَّ أن أُقرِّر، وأن أُقرِّر بكلّ تأنٍّ، إلى مَن، وعلى أيّ مستوى من الالتزام، أودّ أن أُقدِّم حبّي.

عندما أتّخذ مثل هذا القرار، وألقى التجاوب الذي أتمنّى، أصبح، بملء حرّيّتي، ملتزمًا بسعادة مَن أُحبّ وسلامته وارتياحه. ويصبح من واجبي أن

أعمل، بكلّ قواي، على مساعدة هذا الشخص كي يحقّق ما يراوده من أحلام نبيلة. هذا هو الالتزام في الحبّ. وعندما أسأل نفسي عن دور الحبّ في حياتي، عليَّ أن أسأل بالتالي هل في حياتي شخص يهمّني أمر سعادته ونموّه، أقلّه كما يهمّني أمر سعادتي أنا ونموّي. فإذا أجبت بالإيجاب عرفت آنذاك أنّ الحبّ قد دخل حياتي.

ويمكنني أن أسأل نفسي أيضًا هل أنا على استعداد لأن أبذل حياتي في سبيل شخص أو قضيّة. لقد قال لنا يسوع إنّه ما من حبّ أعظم من ذاك الحبّ: «ليس لأحد حبّ أعظم من أن يبذل نفسه في سبيل أحبّائه». يو ١٣/١٥

الالتزام بالحبّ يحتّم عليَّ الكثير من الإصغاء بكلّ اهتمام. إنّي أُريد حقًّا أن أكون حيث فيك حاجة إليَّ، وأن أعمل ما فيك حاجة إليه. إنّي أُريد أن أقول ما يقودك إلى سعادة حقيقيّة وإلى سلام وارتياح. ولكي أستكشف حاجاتك، عليَّ أن أنتبه، وأهتمّ وأُصغي إلى ما تقول وإلى ما لا يمكنك قوله. ومع هذا كلّه، فالقرار النهائيّ في مبادرة الحبّ يبقى قراري أنا.

coptic-books.blogspot.com

وهذا يعني أنّ حُبّي قد يكون حبًّا قاسيًا، ولن تجده دائمًا رقيقًا وناعمًا. فقد تطلب إليّ أن أسايرك بكأس أُخرى، وقد بدأت آثار الخمرة تظهر على وجهك، وقد تدعوني إلى مشاركتك في عمل مخيب... طبعًا، إذا كنت أُحبّك حقًّا، عليَّ أن أُقابل مثل هذه المطالب برفض قاطع. وإذا رأيتك تتّجه نحو تدمير ذاتك، على طريق الإدمان مثلاً، ستجد حبّي عنيفًا في المجابهة. ولكن، عند الحاجة، سيكون حبّي لطيفًا. فإذا حاولت مثلاً وفشلت، ووجدت نفسك، وأنت في ظلمة الخيبة، وفيك حاجة إلى يد في يدك، فهنالك سوف أكون بانتظارك.

وقد أُخطئ في فهمي لك أحيانًا، وفي فهم حاجاتك. لقد حدث لي ذلك مع الكثيرين في الماضي. ولكنّي أريدك أن تتذكّر دائمًا أنّ قراري هو أن أُحبّك، وأنّ التزامي التزام بسعادتك الحقيقيّة الدائمة. ولقد أخذت على نفسي أن أعمل دومًا في سبيل نموّك واكتمالك الذاتيّ. وإذا حدث لي أن فشلت لقلّة حكمة عندي، أو لكثرة من الضعف فيَّ، أرجوك أن تسامحني، وتتذكّر طيب نيّتي. وكن على يقين أنّي سأُحاول أن أُحسّن أمري.

الحبّ الحقيقيّ هو حبّ غير مشروط

الحبّ نوعَان: مشروط أو غير مشروط. إمّا أن أضع شروطًا لحُبّي لك وإمّا أن لا أفعل. وبقدْر ما أضع من الشروط، أحبس عنك حبّي. أنا لا أُقدّم لك هديّة بل شيئًا مقابل شيء. بينما الحبّ الحقيقيّ يكون دائمًا هديّة مجّانيّة.

إنّ ما تعني هديّة حبّي لك هو: إنّي أريد أن أُشاطرك ما هو خيِّر عندي. إنّك لم تَفُز بسباق ولا برهنت لي أنّك أهل لذلك. فالقضيّة ليست قضيّة استحقاق لحبّي. وأنا لا أتوهّم أنّ أيًّا منّا هو أفضل إنسان في الدنيا. حتّى إنّي لا أفترض أنّنا أفضل الناس تجانسًا. بل أنا على يقين أنّه في مكان ما من الدنيا، يوجد شخص قد يكون «أفضل» لك منّي، أو آخر «أفضل» لي منك. ولكن ليست هذه هي القضيّة. القضيّة هي أنّي انتقيتك ووهبتك حبّي، وأنت انتقيتني ووهبتني حبّك. هذه هي التربة الوحيدة التي فيها يخصب الحبّ. «أنت وأنا نَودّ أن نقتحم الحياة معًا».

يكتب إريك فرام، Eric Fromm، في ما يسمّيه الحبّ المشروط فيقول:

coptic-books.blogspot.com

«الحبّ غير المشروط هو أعمق ما يتوق إليه الإنسان، لا الطفل وحده، بل كلّ إنسان، أن يُحبّ المرء لأجل فضيلة عنده، أن يُحبّ لأنّه يستحقّ الحبّ، فذلك يبقي على بعض التساؤل: هل سأنجح في استمالة حبّ الشخص الذي أُريد؟ هل؟ وهل؟... وهنالك قلق دائم بأنّ هذا الحبّ لن يدوم. وأبعد من ذلك، فمَن استحقّ الحبّ يبقى عرضة لخيبات مرّة، لأنّه قد لا يُحَبّ لذاته، بل لِمَا بإمكانه أن يعطي، فيشعر بالتالي أنّ أحدًا لم يحبّه، وأنّ الكلّ قد «استعملوه».

«فنّ الحبّ»

رسالة الحبّ غير المشروط

الرسالة الأساسيَّة للحبّ غير المشروط هي رسالة تحرير للآخر: باستطاعتك أن تكون ذاتك، وأن تعبّر بكلّ ثقة عمّا به تفكّر وتشعر، من دون أن تخشى الحرمان من ذلك الحبّ. إنّك لن تعاقَب على صراحتك وانفتاحك. فإنّ حبّي لا يفرض عليك، لا ثمن دخول ولا بدل إيجار، وليس هنالك من حاجة إلى دفعة في الحساب... وقد يأتي يوم تختلف فيه آراؤنا، ونُحسّ بمشاعر مقلقة فيما بيننا. وقد يأتي

يوم تفصل فيه بيننا مسافات نفسيَّة أو جسديَّة. ولكنّي عاهدتك الالتزام بك. هذا خطّ حياتي ولن أحيد عنه أبدًا. لذا بإمكانك أن تكون حرًّا وتعبّر لي عن الإيجابيّ في ردّات فعلك والسلبيّ أيضًا، وعن الحار في عواطفك وسواه. أنا لا يمكنني أن أستبق ردّات فعلي، ولا أن أضمن قوّتي، ولكن أمرًا واحدًا أعرفه، وهذا ما أُريدك أنت أن تعرفه: «إنّني لن أَرذلك أبدًا!» لقد ألزمت نفسي بنموّك وسعادتك، ووعدتك بدوام حبّي.

الحبّ غير المشروط والنموّ الشخصيّ

لا شيء يمكنه أن يساعد الإنسان على الانفتاح وتحقيق ذاته، أو يجعله يدخل في معترك الحياة بجدِّيَّة، أكثر من خبرة حبّ غير مشروط. لقد عملنا طويلاً ونحن نتوهَّم أنّ أفضل ما يمكن أن يساعد على النموّ هي الانتقادات والعقاب. وهكذا برّرنا محاولة التخلّص من نقائصنا وحالات البؤس عندنا بطرق سلبيَّة مؤذية. لقد أظهرت دراسة حديثة، على سبيل المثال، أنّ نحو ٨٠٪ من السجناء في الولايات المتّحدة هم أُناس تعرّضوا للعنف في طفولتهم . ولم يكتشف علم النفس إلاّ

coptic-books.blogspot.com

حديثًا أنّ الحبّ غير المشروط هو المناخ الأفضل للنموّ الشخصيّ.

الإرادة الحرّة هي بالطبع عامل مهمّ في حياة كلّ إنسان. وعلى كلّ إنسان أن يقرّر كيف يريد أن يكبر ويحاول بلوغ كمال ذاته. ولكن هنالك بعض الشروط الأساسيَّة للنموّ. أحد هذه الشروط وجود شخص يساعدني على الإيمان بذاتي والتعبير بحرّيَّة عمّا يجول في نفسي. وما من شخص يمكنه أن يفعل ذلك إلاّ إذا كان يحبّني حقًّا وبدون شروط.

وعندما نفكّر في الحبّ المشروط، تبادر إلى أذهاننا في الحال صورة الأهل الذين يُظهرون الحبّ لأولادهم فقط عندما تتحقّق الشروط التي فرضوها: عندما يحصل الأولاد على علامات جيّدة، ويطيعون كلّ الأوامر، ويكونون مصدر فخر لأهلهم، إلى ما هنالك... ونفكّر أيضًا بالتعامل بين

coptic-books.blogspot.com

الرجال ونسائهم على هذا المنوال، وبالتمثيل الذي يدور بينهم. يُظهر الرجل حبّه لزوجته فقط عندما تقوم بعمل ما في البيت. أو هي تُظهر له حبّها فقط عندما يبدي اهتمامًا خاصًا بها، كأن يصطحبها إلى سهرة أو عشاء. فكأنّ الحياة كلّها قصّة ميزان، والميزان لا يستعمل إلاّ عندما يكون للحبّ شروط: فتصبح الحياة آنذاك عمليّة مقايضة، تبادل صفقات، بدلاً من أن ترتكز على المجّانيّة في العطاء. وهنالك نوع آخر من الحبّ المشروط لا نفطن له دائمًا: إنّه «الترويض بالمكافأة». هذا ما كتب فيه عالِم النفس الأميريكيّ ب.ف. سكينر، B.F. Skinner، نعطي المكافأة فقط لأولئك الذين نود التحكُّم بسلوكهم، ليسيروا في الطريق الذي نرسم نحن لحياتهم. نخلع عليهم الهديّة التي نريد. فكأنّنا نُضيِّق عليهم ونحدِّد مجال تحرُّكهم ضمن الإطار الذي انتقينا لهم. الحبّ غير المشروط يساعد الإنسان على التحرُّر، أنّه يفسح بالمجال أمام المحبوب ليكون ذاته بصدق وحرّيّة. أمّا «الترويض بالمكافأة» فلا مجال للآخر فيه سوى الامتثال.

قصّة كيتي – Katie –

لسنوات خلت أخبرتني سيّدة اسمها مرغريت ستيرن ماتيسن، Margaret Steirn Mathison، عن حدث حصل في حياتها وأثار عندها قلقًا عميقًا. كتبت قصّتها ونشرتها تحت عنوان «الحبّ لا يكفي»، واختصرتها كالآتي: «إبنتنا كانت ذكيّة، لطيفة، محبوبة وناجحة، وفي نظرنا، ابنة مثاليّة. وفي ليلة مشؤومة حاولت إنهاء حياتها».

بكلّ شجاعة، أخبرت مارغريت مانيسن قصّة كيتي، تلك الابنة المثاليّة. أخبرتني كيف تلقّت مكالمة هاتفيّة في أثناء مشاركتها في إحياء حفل موسيقيّ في قاعة الكنيسة. إنّها كيتي وهي تبكي وصوتها صوت شخص يتخبّط: «أمّي تعالي إلى البيت... لقد تناولت جرعة من الحبوب المنوّمة... الحبوب المنوّ...». وسقط الهاتف وسقطت كيتي على الأرض. فأسرعت إلى إعلام الجيران، وتبع ذلك صفير سيّارة الإسعاف، ومنظر الممرّضات والأطبّاء بثيابهم البيض، وكيتي، الابنة المثاليّة التي حاولت إنهاء حياتها وهي في غيبوبة... والسؤال الذي كان يحزُّ في نفس الأمّ والأب وهما إلى جانب سرير ابنتهما كان: «لماذا؟» لحسن

coptic-books.blogspot.com

استفاقت كيتي من غيبوبتها، وأوّل ردّة فعل لها كانت غضبًا يتطاير من عينيها، وعبارات قاسية ومخجلة ما سبق لكيتي أن تلفّظت بها من قبل أبدًا. وما تخيّل أهلها يومًا أنّ تلك الكلمات هي في عداد مفرداتها. كانت كيتي تعضّ كالحيوان، وقد انقضتّ بأسنانها على يد الممرّضة، وارتفعت يدها بلكمة عنيفة أدمت أنف أحد الأطبّاء، واتبعتها بكلمات بذيئة، ثمّ كانت رفسات أُتبعت بعويل ينفث عنفًا.

وبعد ساعات عدّة أفاقت كيتي من تخديرها الذي أغرقها في سبات عميق، لتقول بصوت خافت: «إنّي أكاد لا أتذكّر شيئًا... إلاّ أنّي كنت حاقدة على كلّ شيء، على كلّ شيء».

«أكنت حاقدة علينا كيتي؟ خاصّة أُمك وأنا؟ سأل والد كيتي».

«لا بل كنت حاقدة على ذاتي، أجابت وهي تغمض عينيها. وعاين الطبيب النفسيّ كيتي في وقت لاحق وعاد يقول للوالدَين المذعورَين: «كيتي فتاة مضطربة جدًّا. هي تنظر إلى نفسها وكأن لا خير فيها أبدًا. لذا تناولت جرعة حبوب المنوّم».

«ولكنّها مدهشة، وهكذا كانت كلّ حياتها» صرخت الأمّ وعيناها تحدّقان مذهلتين، وهي ولا شكّ تعرف ذلك.

لازم الطبيب سكونه وقال: «كانت تعرف أنكما هكذا ظننتما، وهكذا حاولت هي أن تكون. لقد رأت من واجبها أن تكون عند حسن ظنكما. هذا ما باحت لنا به مساء البارحة...

«لماذا أخفت ذلك عنّا حتّى الآن؟ ولقد طالما تحدّثنا إليها»، تساءلت الأمّ متعجّبة.

«إنّها أبت أن تخيّب آمالكما، وأن يزل بال أحد أنّها ليست على مستوى الطيبة التي منها تنطلقان. كلّنا يريد أن يكون محبوبًا، كما تعرفون، ولقد أحسّت أنّ الناس، حتّى أهلها، يحبّونها من جرّاء سلوكها اللطيف. فما أحسّت يومًا أنّها تستطيع أن تكون ذاتها وتُقبل، فشعرت أنّ موتها لا أهمّية له، لأنّها ما تمكّنت من أن تعيش حقيقة ذاتها وتشعر بأهمّيّة حياتها».

أمّا والدا كيتي فكانا يردّدان أنّهما أحباها حقًا، ولا يفهمان لماذا كانت هي تبغض ذاتها.

أجاب الطبيب قائلاً: «الحبّ لا يكفي، أنت لا

coptic-books.blogspot.com

تستطيع أن تعيش لتعكس صورة مَن يحبّك، بل عليك أن تتمكّن من أن تكون ما تريد أنت أن تكون».

خلال تلك الفترة كلّها، وقت كانت كيتي تظهر بمظهر الفتاة والابنة المثاليّة، كانت تحسّ دائمًا في داخلها بنقمة واحتقار لذاتها. لقد بنى لها أهلها منصّة فارتقت إليها. ولسنوات عدّة راحت تمثّل لأنّها ظنّت أنّ ذلك كان الثمن المتوجّب بدل حبّ يغدَق عليها.

في النهاية، وبعد المحاولة المخيفة التي قصدت كيتي من خلالها أن تقتل نفسها، فَهِم الأهل، وكيتي تعافت. والحدث الأساسيّ الذي تفوق قيمته كلّ تقدير، هو استرجاع كيتي لذاتها. تلك الشخصيّة الفريدة التي تميّزها تمامًا عن أيّ إنسان آخر.

فشكرًا لك يا مرغريت ماتيسن وشكرًا لك يا كيتي لإشراكنا في قصّتكما. ويبقى من السهل أن نضيّع العبرة وننسى. فعلينا جميعًا أن نتأكّد أنّ كلّ الذين التزمنا بحبّهم يعرفون أنّ ما من ثمن لهذا الحبّ. لقد وهبتك حبّي من غير بديل. إنّه هبة

منّي لك. وليس في طيّاته من شروط [illegible]، ولا في ذهني نوايا مبطّنة، الحبّ أنقى الهبات وأبسطها. وغالبيّة الناس يريدون التأكّد من أنّ حبّهم لن يُستخَفّ به. ولكنّ الحبّ غير المشروط هو [illegible] عكس ذلك: إنّه يعطي ذاته ولا [illegible] له كيف يتصرّف الآخرون. فكما جاء في [illegible] حديث وُضعت كلماته على فم المسيح: «[illegible] ما أطلب إليكم هو أن تتذكّروا دائمًا أنّ [illegible] لن ينضب».

إعطاء الحبّ وقبوله

عندما نفكّر بحبّ الآخرين لنا نتمنّى [illegible] أنّنا نريده حبًّا من دون شروط. أنا لا [illegible] تحبّني بسبب ما يمكنني أن أقدّم لك، [illegible] أتجاوب مع ما تبتغيه منّي. أنا لا أودّ أن [illegible] وقع خطاك أنت، بل أريدك أن تحبّني كما [illegible] كبري وفي ضعفي، في صحّتي وفي المر[illegible] غناي وفي فقري، وفي الظروف السيّئة [illegible] الظروف الحسنة. أريدك أن تحبّني من دون [illegible] فأنا لا يمكنني أن أبيعك نفسي لأشتري حبّ[illegible]

ولكن عندما نفكّر في الحبّ الذي [illegible]

coptic-books.blogspot.com

نعطي، فقد لا تتجلّى لنا الأمور في الوضوح نفسه. غالبيّتنا نؤثر التريُّث ولو قليلاً، مخافة ألاّ تسير الأمور كما نشاء. أن أعِد بأمانة غير مشروطة، فذلك التزام مخيف جدًّا. نودّ أن نبقي البابَ الخلفيّ مفتوحًا ليكون هنالك مجالات للإفلات. كم هو سهل أن يكون الإنسان طليقًا كالفراشة، ينتقل من زهرة إلى زهرة! وكم هو صعب أن يخاطر المرء في التزام غير مشروط. فكأنّنا نأبى الالتصاق في مكان واحد، ونؤثر العيش كرحّالة، نتنقّل من خيمة إلى خيمة.

بخوف ورعدة: ألتزم

ما الذي نخشاه في الحبّ غير المشروط؟ هنالك ولا شكّ مخاوف متعدِّدة. وعندما أُشارك في حفل زفاف غالبًا ما أُحِسّ كم هو عظيم فعل إيمان الزوجَين، كلّ في نفسه وفي الآخر، عندما يقطعان العهد على أن لا يفرّق بينهما شيء، وأنّ ما من قوّة يمكنها أن تفصل أحدهما عن الآخر. وفي أثناء قطعهما هذا العهد، هما على بيّنة، ولو غير كاملة، مِمَّا يرتّب عليهما مثل هذا العهد. سيأتي يوم يحسّان فيه أنّ نبع العواطف المتدفّق أخذ يجفّ، وآنذاك تمرّ الأمانة في امتحانها الأوّل. وستأتي أيّام

تكون طويلة وضبابيّة، يبدو فيها الحبّ مجرّد ذكريات جميلة وآمال زائفة. ومع ذلك، تدفعهم الشجاعة إلى الإعلان أمام العالم كلّه: «سأكون لَكَ ما حييت... سأكون لكِ ما حييت». إنّه نذر حقيقيّ بالانتماء، إنّه رهان على الحياة، قرار يبدّل حياة شخصين ويجمعهما في حبّ لا ينتهي.

عندما يتبادل العروسان خاتميهما في حفلة الزفاف، أتذكّر أنّ دائرة الخاتم ترمز إلى اللانهاية في الحبّ. بالطبع، هنالك شبّان ينظرون إلى الزواج بسخرية، وكأنّه لا يتعدّى كونه «معاملة شكليّة». عندما أسمع ذلك، أشعر بشيء من الشفقة لأنّ مثل هؤلاء الأشخاص ما ذاقوا أبدًا طعم الالتزام والحبّ غير المشروط. ولكنّي أشعر بحزن عميق أيضًا لأنّي أرى أنّ الزواج غدا التعبير الاجتماعيّ الوحيد، في مجتمعنا المعاصر، عن الحبّ غير المشروط.

أنا أتفهّم المتردِّدين جيّدًا. فكما في أمور أخرى مشابهة، يبدو أنّ للخبرة تأثيرها الأساسيّ. في هذا الأمر أيضًا، نحن نرى الواقع من خلال خبرتنا الخاصّة. فإذا ما تعذّر عليّ مثلاً اختبار حال من الحبّ غير المشروط، عطاءً أو أخذًا، فقد يولد لديّ شكّ في إمكانيّة مثل هذا الحبّ. وأروح أشكّ أيضًا

coptic-books.blogspot.com

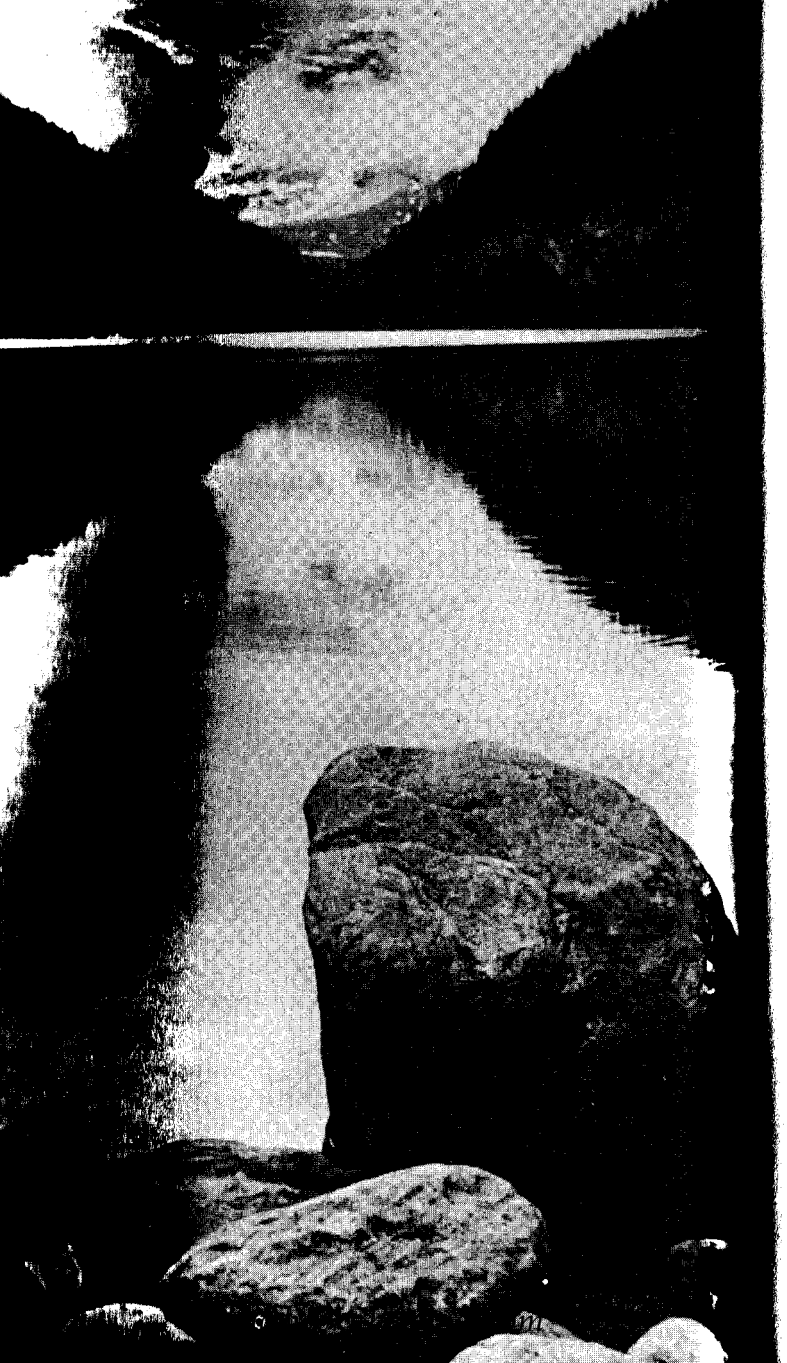

في صدق أولئك الذين يدَّعون مثل هذه الخبرة. ولكن إذا حصل لي بالمقابل أن خبرت مرّة ذاك الأمان الذي ينبع من الحبّ غير المشروط. فآنذاك تنتفي فيَّ كلّ حاجة إلى الشروحات والبراهين.

شبح الخوف

قد يكون الخوف الأكبر من الالتزام بلا شروط عائدًا إلى الخشية من أنّ ذلك سوف ينقص من استقلاليّتي الشخصيَّة وهويّتي الخاصّة. أخشى أن أُرغَم على التخلّي عمّا يميّزني من سواي ويخدم مصالحي الشخصيَّة. في الواقع، إذا تحقّقت تلك المخاوف، فلن يكون هنالك علاقة حبّ، لأنّ العلاقة تحتّم وجود شخصَين. في كتاب «النبيّ» يؤكّد جبران خليل جبران أنّ الحبّ غير المشروط لا يعني

"الحُبّ غَيرُ كَافٍ، لا يُمكنك أن تَعيش
لِتَكونَ صَدًى لحُبّ إنسَان آخَـر".

التصاق جزيرتَين في أرض واحدة. إنّ علاقة الحبّ في رأيه أشبه بجزيرَتين منفصلتَين تغسل مياه الحبّ الواحدة شاطئيهما. وفي كلمات رينير ماريا رالك: Rainer Maria Rilke, «الحبّ أشبه بشخصَين، كلّ منهما في وحدة، قرّرا أن يتقابلا فيحمي أحدهما الآخر ويلتقيان في عمق ذواتهما». قد يتخلّى أحد الشخصَين عن هويّته للآخر، ربّما لقلّة احترامه لنفسه، أو لحاجة عميقة فيه إلى حماية الآخر، ولكن هذا لا يكون أبدًا باسم الحبّ الحقيقيّ.

هذا يعني أنّ حبّي لك لا ينفي حبّي لذاتي. بل بالعكس، فعلم النفس يوضّح تمامًا أنّه لا يمكنني أن أُحبّك حقًّا إلاّ إذا أحببت نفسي. إنّ مَن لا يحبُّ نفسه إنسان حزين، يقضّ مضجعه فراغ لا ينفكّ يحاول أن يملأَه. إنّه أشبه بشخص يعاني من آلام أسنانه، لا يمكنه أن يفكّر إلاّ بنفسه وبالطبيب الذي عنه يبحث كي يريحه من آلامه. إن لم يكن فيَّ حبّ لنفسي، فسوف أستعمل الآخرين ولن أتمكّن من حبّهم.

إنّ حبّي لك لا يعني تخلّيًا عن ذاتي. فقد أبذل ذاتي في سبيلك لأنّي أحبّك، ولكنّه ليس بإمكاني

أن أتخلّى عن هويّتي الشخصيّة. سوف أُحاول أن أكون حيث فيك حاجة إليَّ، وأن أُلبّي ما فيك من حاجة، وأن أقول لك ما تحتاج إلى سماعه، ولكن دائمًا ضمن التزامي بعلاقة مبنيّة على الانفتاح والصدق. وكجزء لا يتجزّأ من حبّي لك، سوف أعرض عليك ما أُفكّر به وما أتمنّاه وما به أشعر، حتّى عندما أخشى ألاّ يروق لك أو يزعجك بعض ما أقول. إذا كنّا نلتزم بالصدق العميق والانفتاح الكامل، فعلاقتنا لن تكون معقّدة، ولن تحمل في طيّاتها مخطّطات خفيّة، ولا مشاعر في غير مكانها. ولن تشوّهها تصرّفات المراهق فينا، الذي يفتقر إلى شجاعة الكلام فيفضح سلوكه ما يجول في داخله. لن يحسّ أحدنا أنّه في أمان مع الآخر إلاّ إذا ما تعاهدنا حقًّا على الصدق والانفتاح. وفي سوى ذلك تبقى حياتنا متعثّرة، يشوبها الحذر، بدلاً من أن ننطلق بقوّة وحيويّة.

أعدك أن أكون شخصًا

أخيرًا، في التزامي بحبّ غير مشروط، أعدك أن أكون شخصًا وليس قطعة من المعجون يسهّل عليك أن تقولبها كيفما تشاء. أن أكون شخصًا، فذلك يعني أنّ لي حقوقًا وعليّ مسؤوليّات. لي

coptic-books.blogspot.com

الحقّ مثلاً أن أُعبّر عن أفكاري ومشاعري، أن يكون لديَّ خيارات يمكنني تحقيقها. كما يعني ذلك أيضًا أنّ في حياتي مجالاً للحرّيّة الشخصيّة، وألاَّ يمسَّ ذلك المجالَ أحدٌ. ففي صلب عمليّة نضجي الشخصيّ أن أتمكّن من اتّخاذ قراراتي الخاصّة وتحمُّل مسؤوليّاتها. أنا لن أتّخذ، طبعًا، قرارات تلزمك أنت، بل تلك التي عليَّ أنا اتّخاذها، لأنّها تخصُّني وحدي. تلك هي بعض الحقوق التي تعود لي كشخص والتي أودّ أن أُحافظ عليها، وآمل منك أن تحترمها. كن على استعداد أن تجد فيَّ شخصًا يمكنك أن تصطدم به. بالطبع، لك حقوقك المماثلة كلَّها، وأنا سأحترمها بدقّة. ولن أحترمها فقط بل سأنتظر منك أن تعيش دائمًا وتحافظ على حقوقك وتفرض احترامها إذا كان ذلك ضروريًّا.

ورجائي إليك أن تكون عندك الشجاعة كي تُفصح لي دائمًا، إذا شئت، عن أفكارك وشعورك. أنا لا قدرة لي على معرفة ما تفكّر فيه وما به تُحسّ. ولا يُمكنني أن أحزر ما هي خياراتك، فعليك أنت أن تقول لي كلّ ذلك. فأنا لا أُريد أن أفترض شيئًا بشأنك: إنّ في ذلك خطرًا كبيرًا. لا تظنّ أنّك تحبّني إذا تقلّبت لتطابق ما أُريد، أو أرهقت

نفسك في تعقيدات ظنًّا منك أنّ ذلك سيسعدني. وإذا فعلت، فمن المرجّح أنّك ستتعبني وسوف أضجر منك، وسوف أفتقد التحدّي عندك وفي علاقتنا.

أخيرًا، لا يمكنني أن أدعك تستعملني أو تحاول، بحيلة منك، أن تغيِّر حياتي. علينا أن نحبّ الأشخاص ونستعمل الأشياء. وإنّني شخص ولست شيئًا. إذا تركتك تستعملني فذلك ليس بفعل حبّ لا لك ولا لنفسي. وإنّي أرجوك أن تكون على يقين بأنّي لن أسمح لنفسي أن أُدينك أبدًا، فليس باستطاعتي، لا الآن ولا في المستقبل، أن أعرف ما في نواياك. والطريق الوحيد إلى معرفة ما تضمر هو أن أسألك أنت، وأنّي لن أسمح، لا لدموعك ولا لهبّات غضبك أن تثنيني عن جهودي للتفاهم معك. وإذا ما أحسست بشكّ في أمرك، فسوف أواجهك بشعوري. وإذا حدث أن جرحتني بموقف منك أو كلمة، فسوف تسمع صرخة ألمي. وعندما تثبّتني أو تعزّيني أو تهنّئني، فسوف أكُنّ لك الشكر مدى الحياة. «الأنا» الذي سيكون على اتّصال بك لن يكون طبعة مختصرة عنّي ولا منقّحة.

coptic-books.blogspot.com

إنّني فاعل، لا رادَّ فعل. لذا عليَّ أن أُقرِّر أنا دائمًا كيف أتصرَّف. لا يُمكنني أن ألقي بهذه المسؤوليَّة على عاتقك. وسوف أحاول أن أُوفِّق، بقدْر المستطاع، بين اللباقة والعطف من جهة، والصراحة والانفتاح من جهة أُخرى. ولكن لا حقّ لي أن أُساوم لا في سلوكي ولا في علاقتي معك. فلا أفكاري برسم الإيجار ولا مشاعري، ولن أسمح أن يستعملني أحد.

ومهما فرض علينا الحبّ، فهو لن يتطلَّب منّا أن نكون «مماسح» كتلك التي توضع أمام باب المدخل، ولا أن نعمل دومًا لإرضاء الآخرين، ولا أن نبحث عن السلام بأيّ ثمن. فأثمن ما يمكن لحبّي أن يقدِّم لك هو خلاصة ذاتٍ صادقة، من خلال انفتاح هو قمّة في الصدق.

coptic-books.blogspot.com

- ٤ -

القُوى التي تُحرّكُ الحُبّ

عِندَمَا أقبلُ أنْ أكون حُرًّا بأيّ ثَمَن
أبْدأ آنذاك أُكَبِّلُ ذاتي ،
وَعِندَمَا أتّبع نَزَواتي
أُلقي بذاتي في القيُود ،
أعمَل مَا لا أريد ،
أُوقع نَفسي تحتَ رَحمة نفسي .

وَفي النهَاية ، عِندَمَا إخالني أصبحتُ حرًّا
تمسي حرّيّتي عِبئًا عليَّ ،
أُصْبح مرغمًا على القرَار
وَلا قدرة لي عليه
فتغدو حُرّيّتي سجنًا جديدًا .

الحرّيّة ، أجدهَا فقَط
في الخيوطِ التي تشُدّني
إليك .

أولريخ شافر

coptic-books.blogspot.com

مراحل الحبّ الثلاث

مسيرة الحبّ تقع في مراحل ثلاث، أو ثلاث محطّات مهمّة:

١ ــ **اللطف:** وهو تأكيد حارّ «أنّي سأكون إلى جانبك، لأنّك مهمّ في نظري».

٢ ــ **التشجيع:** تأكيد جديد على قدرتك واكتفائك الذاتيّ.

٣ ــ **التحدّي:** الحثّ على العمل بحبّ وحزم.

لقد قيل: الحبّ فنّ. وهذا يعني أنّه ليس من صيغة مسبقة توفّر له النجاح، ويمكن اللجوء إليها. فعلى كلّ امرئ أن يواجه واقع العلاقة كلّ مرّة بقراءة جديدة، فيقرّر ما يتوجّب عمله، وما هي الطريقة الفضلى لذلك. فكما أنّ الفنّان ـ الرسّام يتّخذ لنفسه وسائل يحدث بواسطتها تأثيرًا على الآخر، فعلى الفنّان ـ المحبّ كذلك أن يتحسّس

الواقع فيقرّر متى يكون هنالك حاجة إلى المزيد من اللطف أو التشجيع، أو التحدّي. وهذا لن يكون بالأمر السهل.

اللطف

لقد قال أحدهم، وفي كلامه الكثير من الحكمة؛ «لا يهتمّ الإنسان بما تعرف حتّى يدرك كم أنت مستعدّ حقًّا أن تهتمّ به». أنا على يقين أنّ هذا هو أساس الحبّ: إهتمام صريح بسعادة مَن تحبّ، وتثبيته في قيمته الشخصيّة. وكلّ بناء على غير هذه الأسس هو بناء على الرمل. يجب أن أكون على يقين أنّك تريد سعادتي حقًّا ونموّي، أنّك في الحقيقة «حاضر لي». وإلاّ لَمَا أفسحت المجال أمامك كي تلج إلى داخلي.

يجب أن أقتنع أنّي شخص بالنسبة إليك، ولست شيئًا يُستعمل، ولا حالة تدرس أو مشكلة تَبحث عن حلّ. لذا فأوّل ما يُنتظر من الحبّ هو أن يكشف عن أمور ثلاثة: إنّك تهمّني حقًّا وتهمّني سعادتك. وسوف أعمل معك حتّى تبلغ مرتجاك، وتحقّق ذاتك. إنّك في الحقيقة شخص يتمتّع بقيمة فريدة.

coptic-books.blogspot.com

التشجيع

أنا أعترف أنّني، لفترة طويلة من حياتي، كنت أُفكّر في أن الأعمال الحسنة هي أساس الحبّ. حتّى إنّي توهّمت أنّي أُحبّ الآخرين حقًّا، عندما أقوم مقامهم بأعمال هي من واجبهم، وفي متناول قدراتهم. فإذا كان الشخص خجولا كنت آخذ على نفسي أن أُطالب له بحقّه، كي أُخفّف عليه بعض الأسى. وللمتردّد كنت المقرّر، وللباحث عن جواب كنت المجيب. وكلّ مَن أتاني بمشكلة وجد لديَّ حلاً لها سريعًا. لم أدع الآخرين يجهدون ما فيه الكفاية كي يذوقوا طعم الانتصار على مشاكلهم وعلى ذواتهم.

ظهرت لي الحقيقة شيئًا فشيئًا، وبدأ ذلك يوم قال لي أحدهم: «أَعط الإنسان سمكة فتكفيه طعامًا ليومه. علّمه اصطياد السمك فيكتفي من الطعام طيلة حياته». التطبيق كان واضحًا. فالشخص الخجول والمتردّد، وكلّ الذين يصادفون مصاعب في حياتهم، قد يتمنّون بل هم يطلبون إلينا أن نتحمّل عنهم أعباء ما يواجهون. وقد يقول كلّ منهم: «لا قدرة لي على...» وهم في الحقيقة يعنون: «إنّهم لا يريدون أن يرهقوا أنفسهم». فقد

يحاولون بشتّى الطرق أن يحمّلوا أثقالهم للآخرين. ونحن، الأشخاص العاديّون، نبقى عرضة للسقوط في مثل هذه التجارب. إنّنا نشعر بشيء من النشوة عندما نجيب حالاً: «طبعًا سأفعل لك ما تريده منّي. «أو عندما نقدّم النصح قائلين: «هذا ما يجب عليك أن تفعل...» والأجوبة الصحيحة، في مثل هذه الحالات، لا تحمل في طيّاتها مكافأة آنية كبرى، وقد تأتي على الشكل التالي: «باستطاعتك أن تقوم بذلك أنت... أنا لا أعرف ما يجب أن تفعل. إنّ لديك من الذكاء ما يكفي لاتّخاذ قراراتك. ماذا تظنّ أنّه عليك أن تفعل»؟

عندما نسقط في تجربة البحث عن مكافأة آنيّة لنا، ونحاول أن نعيش مكان الآخرين، جاعلين منهم أشخاصًا بالوكالة، نربّي فيهم حاجة إلينا. فيجدون أنفسهم مرغمين على اللجوء إلينا، لنقوم مقامهم بالأعمال التي هي من شأنهم وحدهم، ونعالج المشاكل التي عليهم همّ حلّها. وهكذا نربّي جماعات تزداد ضعفًا كلّ يوم، فتشعر دومًا بحاجة إلى «منشّط». ندرّبهم لتصبح حاجتهم إلينا ضرورة. هذا السلوك بعيد عن الحبّ كلّ البعد.

من حقائق الحبّ العميقة التي يصعب علينا

coptic-books.blogspot.com

فهمها أحيانًا، هي أنّ الحبّ يحمل إلينا الحرّيّة. الحبّ يعطي الإنسان **جذورًا** (شعورًا بالانتماء) **وأجنحة** (إحساسًا بالاستقلاليّة والحرّيّة). وهو يوفّر للإنسان حاجته الأساسيّة إلى الإيمان بنفسه، والثقة بقدرته على مجابهة المشاكل ورفع تحدّيات الحياة. هذا ما نعني بالمرحلة الثانية من الحبّ: التشجيع. إنّها ترسّخ في الشخص المحبوب وعيًا أعمق لقدراته، وقوّته واكتفائه الذاتيّ. التشجيع يوحي للشخص المحبوب ما مفاده: «إنّ لديك القدرة على النجاح في ما تعمل!».

التحدّي

التحدّي هو المرحلة الأخيرة من الحبّ. بعد إظهار العطف («إنّني إلى جانبك!») وتثبيت الشجاعة («إنّ لديك القدرة على النجاح في ما تعمل») على الحبّ الحقيقيّ أن يدعو المحبوب إلى «الاجتهاد»، إلى النموّ، متخطّيًا حدوده القديمة، محاولاً تحقيق ما كان يعتبره حتّى الآن بالغ الصعوبة. عليه أن يدعو إلى الارتفاع فوق الخوف، ويتخلّى عن الحقد، ويطلق الشعور المكبوت، ويواجه الصعوبة، ويقدّم اعتذارًا مؤلمًا.

إذا كان التشجيع يساعد المحبوب على وعي قدرته،

فالتحدّي يدفعه بحبّ إلى استعمال تلك القدرة: «حاول، إجتهد، إعمل على تحقيق ما تريد». فإذا نجحت رأيتني في الصفّ الأماميّ، أُصفّق لك بحماس. وإذا فشلت وجدتني جالسًا إلى جانبك. لن أُتركك وحيدًا. فحاول بكلّ ما لديك من قدرة، فبإمكانك أن تنجح!».

الحبّ والنموّ

أشياء جميلة عديدة يمكن أن تقال في الحبّ. مثلاً: «الحبّ يقسم العبء إلى اثنين». وهنالك قول رهبانيّ مأثور: «حيث يكون الحبّ، يحلو التعب ويتبدّد العناء». نحن نرهق أحيانًا الأشخاص الذين نحبّ، ولكنّنا دائمًا نشرب نخبهم: «آه لو كان فينا حبّ...» علينا أن نشرب نخب الحبّ دائمًا، إنّه سرّ معنى الحياة. ومن واجبنا أن نبقيه قريبًا من الواقع، فلا ندع الرومنطيقيّة تهيمن فيه. لقد لاحظ ت.س. إليوت، T.S. Eliot، كم يصعب على الإنسان أحيانًا أن يتحمّل الواقع». وكتب إيونسكو Ionesco، كذلك يقول: «الإنسان يحاول دومًا أن يحوّل واقع الحياة إلى عمل أدبيّ».

حقيقة الحبّ، على ما أعتقد، أنّه منبع الارتياح، ولكنّه في الوقت نفسه تحدٍّ عظيم. الحبّ يتحدّاني **في**

coptic-books.blogspot.com

الحال أن أخرج من ذاتي. فهذا سينقلني من «اللهو» الصبيانيّ، إلى قمّة العطاء في سبيل شخص أو قضيَّة، من خلال حبّ كريم لا ينتهي. الحبّ يدفع بي إلى التركيز على حاجات الأشخاص الذين أُحبّ. وهذا يتطلّب منّي أن أعرف كيف أصغي، ويحتِّم عليَّ أحيانًا أن أتخلَّى، ولو إلى حين، عمّا يسعدني، لأتمكّن من الاهتمام بحاجات مَن أُحبّ. وأنّ نوع العلاقة التي تعطي الحياة للحبّ، تحتِّم عليّ الاتِّصال بذاتي، بعمق مشاعري وأفكاري، كي أشرك الآخرين فيها، من خلال انفتاح أُقدم عليه بكثير من الخوف والرهبة. الحبّ يضعني في خطر. إنّه يعرِّضني لردَّات فعل صادقة من أُناس سمحت لهم باختراق خطوط دفاعي. وإذا كنت قد بنيت سياجات واقية من حولي، فمِن شأن الحبّ أن يتكفَّل بإسقاطها جميعًا.

نَحْن لا نَخْدُم الحُبّ عِندَمَا نُحَوِّله
إلى شُعورٍ رومنطيقيّ.

الحبّ يعلّمني أن أُعطي وآخذ من دون حساب. إنّه يتخطّى العدل. وإذا كان يقسم أعباء الحياة إلى قسمَين، فهو، في الوقت عينه، يزيد على المسؤوليّة ضعفًا جديدًا. لا يمكن لاثنين أن يأكلا بكلفة واحد، إلاّ إذا أحجم أحدهما عن الطعام. وإنّه لحقيقة أنّ اثنين لا يستطيعان أن يقرّرا بسرعة، كما يستطيع شخص بمفرده. وإنّ شخصًا منفردًا يمكنه التحرُّك أسرع من اثنين... إلخ.

وبعبارة أُخرى إذا كنت لا تريد:

- أن تخرج من ذاتك وتتخلّص من أنانيّتك،
- أن تتعلّم كيف تهتمّ، بل كيف تتكرّس بصدق للاهتمام بشخص آخر،
- أن تدرك كيف يجب أن تستمع بدقّة إلى ما يُقال وإلى ما لا يمكن للآخر أن يقوله،
- أن تؤجّل الاستمتاع بما تريد كي تتمكّن من الاستجابة لحاجات شخص آخر،
- أن تتّصل بعمق أعماق مشاعرك وأفكارك،
- أن تشرك الآخر في عمق ذاتك كفعل حبّ،
- أن تتقبّل ردّة الفعل من شخص تعرّف إليك بعمق من خلال انفتاحك عليه،

- أن تتخلّى عن ميّزاتك وتكون على استعداد أن تعطي مائة بالمئة،
- أن تتعهّد مسؤوليّات جديدة في الجماعة،
- أن تتمرّس في الفنّ الدقيق، فنّ الحوار والمشاركة في القرار.

إذا كنت لا تريد تلك الأمور، فأنت ترفض الحبّ. وإذا كنت تفضّل أن تكون جزيرة، منعزلاً، منشغفًا بذاتك، تؤثر العيش في عالم عدد سكّانه شخص واحد، سينتزع الحبّ من يديك كلّ ما تقدّر، وعليه تقبض بكلّ قواك.

وإنّه يبدو لي بديهيًّا، وإخاله أنّه سيبدو لك هكذا، أنّ تحدّيَات علاقة الحبّ الحقيقيّ تلك، التي تداهم أنانيّتنا، هي في الحقيقة، الجسر الذي عليه نعبر إلى النضج البشريّ والاكتمال الإنسانيّ.

لقد كتب فكتور فرنكل، Victor Frankl، في كتابه: «بحث الإنسان عن معنى» يقول:

«إليك فكرة ترسّخت فيّ بعمق: للمرّة الأولى في حياتي أدركت الحقيقة كما تغنّى بها العديد من الشعراء، وجاهر بها عدد كبير من المفكّرين، وكأنّها القمّة في الحكمة. الحقيقة أنّ الحبّ هو

coptic-books.blogspot.com

النهاية، وأنّه أرفع ما يمكن لبشر أن يتوق إليه. ثمّ أدركت معنى أكبر سرّ يحمله الشعر والفكر والإيمان: لا خلاص للإنسان إلاّ في الحبّ ومن خلال الحبّ».

وهناك عالِم كبير آخر، د. كارل مينينجر، Dr. Karl Menninger، كان يحبّ دائمًا أن يردِّد: «الحبّ يشفي. يشفي مَن يعطي الحبّ ويشفي مَن يقبل الحبّ». حتّى أولئك العلماء الكبار الذين حدث أن اختلفنا معهم في الرأي أحيانًا، يُجمعون على مديح الحبّ ويرون في تلك العلاقة المنبع الأساسيّ للنضج البشريّ. عندما طُلب إلى زكمند فرويد، Sigmund Freud، أن يعطي تحديدًا للصحّة النفسيّة قال: «إنّها القدرة على العمل وعلى الحبّ». ولألفرد أدلر، Alfred Adler، قَول مشابه: «إنّ كلّ إخفاق بشريّ إنّما هو نتيجة لانعدام

الحُبّ يَقضي بأن أتعلَّمَ كَيْفَ
أهتمّ بحاجاتِ مَنْ أُحِبّ.

الحبّ». ويزداد كلّ يوم عدد علماء النفس الذين يُجِلّون قدرة الإنسان على إقامة علاقات حميمة. فالأشخاص الذين تنقصهم القدرة على خلق علاقات حبّ حقيقيّة، هم عرضة للأمراض المزمنة، عشر مرّات أكثر من سواهم. ومن بينهم عدد، يفوق خمس مرّات النسبة العاديّة، يتعرّض لمشاكل نفسيّة حادّة. فوصيّة يسوع أن يحبّ بعضنا بعضًا إنّما هي ضرورة بشريّة أكثر منها خيارًا ممكنًا. والدليل الحسّيّ على النتائج المكبِّلة التي تشهدها حياة خلت من الحبّ، نجدها في عيادات الأطبّاء النفسيّين، التي تغصّ بالناس أطفالاً وكبارًا. إنّهم يفتقرون إلى الوعي لقيمتهم الخاصّة، والشعور بهويّتهم، وقلوبهم مليئة بالبغض والخوف، تمزّقها آلام القلق. الحبّ عمليّة مكلفة، ولكن البدائل عنها كلّها مميتة.

التحدّيات ووسائل الرفاهيّة

لقد كتب مَيكل نوفاك، Micheal Novak، في الزواج والعائلة، عبارات أودّ أن أشرككم فيها. وإنّ ما كتبه في المقطع الطويل الذي انتقيته، والذي نشر في هاربرز ماغازين Harpers Magazine، ينطبق، في رأيي، على أيّ التزام في الحبّ:

«الإنسان في المجتمع الغربيّ لا حاجة فيه إلى أن يصبح أنسانًا بالغًا، فباستطاعته أن يبقى طفلاً كلّ حياته، وهذا ما يشجّعه عليه المجتمع. الهدف الأساسيّ في حياته يبقى تحقيقه لذاته. فالزواج مجرّد عقدٌ. وهو لا يستلزم سوى ما يسمح به أحد الزوجَين للآخر أن ينتقص من خصوصيّة حياته. والأولاد مسؤوليّة غير مرغوب فيها. فإذا أنجب الإنسان طفلاً تعذّر عليه هو أن يستمرّ في الطفولة. لذا فهم يحاولون العيش، كما كان يُظنّ أنّ الملائكة يعيشون، طيورًا تحلّق حرّة طليقة.

يقول الناس إنّ الزواج مضجر، وما يقصدون قوله أنّه مخيف، فالأمور التي يتحتّم البوح بها، وما يتخلّل الحياة الزوجيّة من غضب وحقد وغيظ وحبّ هي متعدّدة وعميقة ومضنية. يقولون إنّ الزواج يفقد الحياة بريقها، وهم في الواقع يعنون أنّه يقودنا إلى أبعد من نزوات المراهقة وأحلامها الرومنطيقيّة. يقولون إنّ الاولاد مزعجون ومكلِفون. وما يعنون في الحقيقة هو أنّ أهمّيّة دور الأهل في تأمين مستقبل أولادهم أصبحت اليوم معروفة وواضحة أكثر من أيّ وقت مضى.

لقد اتّخذت من الزواج ومن أولادي عِبَراً عدّة.

coptic-books.blogspot.com

وأهمّ ما تعلّمت عن ذاتي لم يكن مفرحًا. إنّ الأنانيّة في الإنسان (في نفسي أنا) أمر يثير الدهشة؛ أنا أرفض أن يزعجني أحد، أو يتحدّاني، أو يقلق راحتي. أقسام كبيرة من ذاتي هي «ملكي أنا وحدي». وإذا نظرت إلى ذاتي بعين الزوجة المحدِّقة الذكيّة الصادقة أحسست بضعفي. إنّه لَمِن الأمور المربكة جدًّا أن نحاول إنصاف كلّ الأولاد. فلكلّ منهم طبعه الخاصّ، وكلّ منهم يختلف عنّي، ويختلف عن كلّ من رفاقه. إرتباطاتي العائليّة تحول بيني وبين العديد من الفرص. ولكنّي أعرف أنّ تلك الارتباطات تحرّرني. هي تدفعني لأكون الشخص الذي عنه أبحث وإليه أتوق».

ويتابع نوفاك قائلاً: «إذا تكلّم فقط عن المصاعب في الحبّ، فيكون في كلامه بعض الكذب، وفي اعتقادي أنّ جمال الحياة لن ينقشع على حقيقته إلاّ إذا تبدّدت عواصف الحبّ. فالسعادة التي يختبرها المرء على طريق الحبّ «التي قلّ سالكوها» تبقى فريدة في طبيعتها. عندما أُحبّ شخصًا في الحقيقة، تأخذ حياتي معنى عميقًا جديدًا. عندما يلج الحبّ حياة امرئ تتحوّل وحدته إلى حضور دافئ، وغربته إلى شعور بقيمة الذات والثقة بالنفس. وهو ما

نسمّيه اليوم «شعورًا بالهويّة». ولقد أصبح من البديهيّ القول إنّه بإمكاننا أن نعرف ونحبّ في ذواتنا فقط ما نحن على استعداد أن نشارك فيه الآخرين. والشخص الذي لا يعرف الحبّ، ويهيم في الدنيا، لا هدف عنده، يجد في الحبّ شعورًا بالانتماء ومقامًا يُحسّ فيه وكأنّه في بيته».

إنّ انطلاقي في الحبّ نحو شخص آخر، فيه بعض المخاطرة. والخطر الحقيقيّ يكمن في رفض الآخر لي وعدم تفهّمه لحقيقتي. وفي هذا يختبر المرء ألم الفراق بدءًا بالفراق المؤقّت، وانتهاءً بالفرقة الدائمة في الموت. فكلّ مَن نظر إلى سلامته الخاصّة كشرط في الحياة لا جدل فيه هو شخص أبى أن يدفع ثمن الحبّ وهو لن يذوق طعم غناه أبدًا. وكلّ مَن حبس نفسه في «شرنقة» لحماية ذاته والدفاع عنها، مبقيًا ذاته دائمًا على مسافة مريحة من الآخرين، محتفظًا بمقتضياته الخاصّة، وبخصوصيّاته كافّة، سيجد ثمن الحبّ باهظًا جدًّا، ويبقى إلى الأبد سجين خوفه.

لقد جاء في كتاب «فنّ الحبّ» لإريك فرام، Eric Fromn:

coptic-books.blogspot.com

«لكي يُحِبّ الإنسان ويُحَبّ، عليه أن يتحلّى بالشجاعة، شجاعة التأكيد على أنّ بعض القِيَم لا يساوَم عليها، وشجاعة المخاطرة بكلّ شيء في سبيل الحفاظ على تلك القِيَم».

إنّ الآثَار المكبِّلة لحياةٍ لا تَعرف الحبّ ،
نجدهَا في عِيَادات الأطبّاء النّفسيّين.
فَتِلكَ العِيَادات تعجّ بالناس أطفَالاً وَكبَارًا ،
تجمع بَيْنَهم قلّة الوعي لقيمتهم الخاصّة وَلهويّتهم المميَّزة.

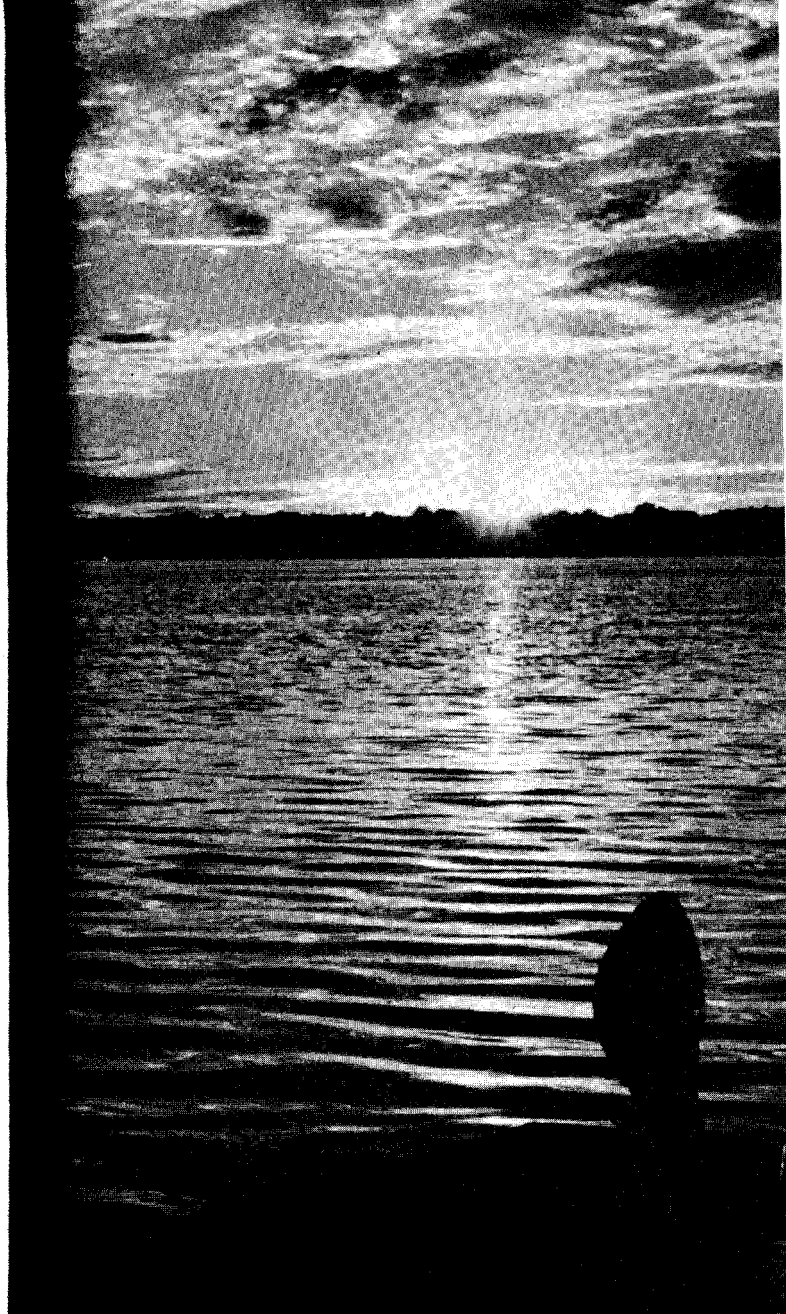

- ٥ -

إلهُ الحُبّ

بَعدَ تَغَلُّبِنَا على الرِّيَاح
وَالأمْوَاج ، وَ المَدّ وَالجزْر ، وَالجاذبيَّة ،
سَيَأتي يوم نَحْشُدُ فيه لله
طاقاتِ الحُبّ .
آنَذاك ، وَ لِلمَرَّة الثّانيَة
في تَارِيخ البَشَرِيَّة ،
يَكون الإنسان قَد اكتَشَفَ النَّار .

بيار تيار دي شاردن

coptic-books.blogspot.com

في العهد القديم يُظهر اللّه نفسه لشعب إسرائيل إلٰهاً يُحِبّ من دون شروط. وقد قرّر أن يهب ذاته ببادرة منه حرّة، مجّانيّة، ليكوّن شعبًا يدعوه «شعبه المختار». وفي الفصل السابع من كتاب تثنية الاشتراع، يظهر جليًّا أنّ حبّ اللّه لشعبه لم يرتكز على شيء كان الشعب يملكه أو فضيلة تحلّى بها. والكلمة العبرانيّة التي انتقاها الكاتب ليُعرب عن ذاك الحبّ غير المشروط هي «Hesed»، ويمكن ترجمتها «بالرحمة المحبّة». وفي ذلك التعبير أيضًا ما يعني أنّ ذاك الحبّ هو هبة مجّانيّة، والتزام لا عودة عنه. اللّه هو الذي يقرّر وهو الذي يختار مَن يسبغ عليه حبّه المجّانيّ. وهو بفعل إرادة منه حرّ، يبقى ملتزمًا بشعبه. والنبيّ هوشع يصوّر اللّه، في علاقته مع شعبه، وكأنّه يتّخذ لنفسه زوجة:

«... وأخطبك لي للأبد(*)

أخطبك بالبرّ والحقّ والرأفة والمراحم

وأخطبك لي بالأمانة فتعرفين الرب»

هوشع ٢/٢١

وعلى لسان أشعيا النبيّ يقول اللّه:

«أتنسى المرأة رضيعها
فلا ترحم ابن بطنها؟
حتّى ولو نسيت النساء
فأنا لا أنساكِ»

أشعيا ٤٩/١٥

إنّ مجّانيّة حبّ اللّه لشعبه هي أشبه بالصدى يتجاوب في كلّ أرجاء العهد القديم. لقد تعهّد اللّه وهو سيبقى أمينًا لعهده. ويكتب النبيّ إرميا في إرادة لدى اللّه للغفران لا تعرف الملل:

«من بعيد تراءى لي الربّ
أحببتك حبًّا أبديًّا
فلذلك اجتذبتك برحمة»

إرميا ٣١/٣

وفي ذلك استباق مذهل لمثل الابن الضالّ الذي أعطاه يسوع: «وكان لم يزل بعيدًا إذ رآه أبوه، فأشفق عليه وأسرع إليه، فألقى بنفسه على عنقه وقبّله طويلاً».

لو ١٥/٢٠

coptic-books.blogspot.com

يسوع: كلمة حبّ قالها الله

إنّ القدّيس بولس يشير إلى يسوع على أنّه: «صورة اللّه الذي لا يرى». لو ١٥/١. وكان يسوع بالنسبة إلى معاصريه معلّمًا، وكان من شأنه، بحسب التقليد، أن يصرف معظم وقته في الاهتمام بأُمور الشريعة. ولكن المسيح ما انفكّ يتكلّم عن الحبّ، فكان ذلك مصدر إزعاج لمعاصريه. وكانوا يحاولون حمله على أن يصبح مفسّرًا للشريعة، وراحوا يعرضون عليه قضايا قانونيّة ليحكم فيها: «أيُّها المعلّم الصالح، لقد سقط ثور في حفرة يوم السبت، ونريد أن نعرف هل يحقّ لنا أن ننتشله... أيُّها المعلّم الصالح، هل دَفْع الجزية لروما واجب علينا أم لا؟... أيُّها المعلّم الصالح، لقد أخذت هذه المرأة في زنى، وفي الشريعة أنّه من الواجب أن تُرجَم حتّى الموت... فما هو رأيك؟... أيُّها المعلّم الصالح، ماذا تقول بكذا وكذا؟...

وما انفكّ يسوع يردّد على مسامعهم أنّ مثل هذا الاهتمام بحرف الشريعة يقتل فيها روح الحبّ. «لا تضطربوا» كان يقول لهم، بل تأكّدوا أنّي ما جئت لأحلّ الناموس بل لأكمّله، ولأُخضع الشريعة كلّها، بل لأرفعها كلّها فتختصر في وصيّة واحدة

كبرى: الحبّ! بإمكانك أن تخضع نفسك للشريعة بكلّ دقائقها، ولكن دون حبّ. أمّا العكس فليس صحيحًا. إذا كنت حقًّا تحبّ فستحفظ الشريعة: لن تسرق ولن تكذب ولن تقتل إن كنت في الحقيقة تحبّ». تلك كانت باختصار أجوبة يسوع، إذا لم تكن تلك كلّ كلماته.

كان يقول لكلّ منهم ما معناه: «لا تتعامل مع اللّه بحسب حرفيّة الشريعة. فتلك طريقة تتعامل فيها مع شخص تخافه. إنّ خوفك من السلطة خوف من عقابها. لذا أنت تقوم بكلّ ما تطلبه منك كي تحفظ نفسك. ويمكنك القول آنذاك: «لقد أتممت كلّ ما طُلب منّي. لذا لا يمكنكم أن تُنزلوا بي أيّ عقاب!» ليس هذا، في الحقيقة، بجواب حبّ، لا للّه ولا للقريب. إنّه جواب شخص ضعيف خائف، أعجز من أن يتحمّل أيّ قلق شخصيّ. فاللّه ما دعاك يومًا لتخضع له بخوف، بل لتحبّه بكلّ قلبك، وكلّ نفسك، وكلّ قوتّك وكلّ ذهنك، ولتحبّ قريبك حبّك لنفسك!».

ولكنّهم لم يفهموا. وفوق ذلك كلّه دار بينهم حديث على انفراد، حول عطفه على الخطأة.

coptic-books.blogspot.com

وكيف أنّه اختلط بالجباة والبغايا، وأكل وشرب مع العديد ممّن نبذهم المجتمع.

لقد نظر إلى نفسه «كراع صالح يحبّ خرافه الضالّة ويبحث عنها». إنّه «الطبيب الإلهيّ»، ولم يأتِ ليعنى بالإصّحاء والأغنياء، بل بالفقير والمريض والمعوز. ولقد أحدث يومًا ما يشبه الفضيحة، في بيت سمعان الفرّيسيّ، حين سمح لامرأة فاسقة أن تسكب دموعها على قدميه وتمسحهما بشعر رأسها. والأفظع من ذلك أنّه مدحها من أجل حبّها. وقال أيضًا إنّه حيثما تعلن البشارة في العالم كلّه، يُحدَّث أيضًا بما صنعت هذه المرأة إحياء لذكراها. هذا في الحقيقة، قد تخطّى المعقول!

المجابهة والمثل

جابه المشكّكون المسيح يومًا، وطرحوا عليه سؤالاً كانوا يعرفون مسبقًا أنّه يصعب عليه الإجابة عنه. حاقوا به كطوق من الحديد مشبع بالعدائيّة. وكان ذلك حظّه الأخير. فإذا أبى أن ينصاع، أو أقلّه أن يساوم بعض الشيء، لأصبح من الأفضل أن يموت شخص واحد، وألاّ تهلك الأمّة بكاملها (مع كلّ شرائعها). إنّهم عرفوا ذلك وهو أيضًا عرفه.

سألوا: «ما هو موقف الله من الإنسان الخاطئ؟» فأخبرهم قصّة الحبّ غير المشروط. نحن نسمّيها «مثل الابن الضالّ». إنّها قصّة والد عطوف محبّ مع ولدَيه. شعر ابنه الأصغر يومًا وكأنّ البيت الوالديّ أخذ يضيق به، وطريقة الحياة فيه لم تعُد تروق له. فطالب بحصّته من الميراث وغادر من دون أن يلتفت إلى الوراء أبدًا. ترك الأب لابنه حرّيّة الخيار، ولكنّه راح ينتظر، كلّ ليلة، على المنصّة أمام باب بيته، يراقب الطريق العائد من المدينة وفي قلبه بعض الأمل. أتاه عائدون من المدينة حاملين أليه أخبارًا مفجعة. «إنّك تستحقّ، في الحقيقة، لقب «والد السنة»: فإنّك قد أنجبت ولدًا فائق الذكاء، يغوي مَن يلتقي من النساء الضعيفات، وذلك عندما لا يكون سكران أو متخبّطًا في مشكلة ما».

ولكن الوالد بقي على حاله من الأمل، وثابر على الانتظار كلّ ليلة إلى أن تظلم الأرض كلّها من حوله. وكان يخلد إلى فراشه، يبكي ويصلّي من أجل ابنه، ذاك الذي ابتعد عنه مخلّفًا حبًّا شديد الألم.

وذات مساء، هنالك على المنصّة أمام الباب، أحسّ بأنّ قلبه يكاد ينفجر من البهجة. رأى من

coptic-books.blogspot.com

بعيد صورة ابنه يتقدَّم في الطريق... عرفه. إنّه ابنه، ابنه العائد إلى البيت. أسرع نحوه، وقلبه يخفق، ودموع الفرح تنهمر على وجنتَيه. يُجمع علماء الكتاب أنّه، من الغرابة بمكان، في تلك الحقبة من الزمن، وفي مثل تلك الحضارة، أن يَهرع والد إلى استقبال ولد له، ترك البيت الوالديّ ومضى. كان يمكن ذلك أن يحدث فقط لشخص تخطّى فرحه حدود المكان والزمان وكلّ التقاليد الاجتماعيَّة.

فألقى الوالد بنفسه على عنق ولده وقبَّله طويلاً، ودموع الفرح لا تزال تنهمر على وجنتَيه. والولد يتمتم ما معناه أنّه لا يستحقّ بعد أن يكون ابناً لوالده، وأنّه يريد فقط أن يكون أحد الأُجراء في بيته. ولكن الوالد لم يسمع شيئًا من تلك التمتمة، فصوت قلبه أقوى، وكان يقول: «لا يهمّني أين كنت وماذا فعلت. كلّ ما يعنيني أنّك هنا... أنّك في البيت!». وراح يمسح دموعه السخيَّة وينادي الخدّام كي يحضروا الثوب والخاتم ويدعوا المغنّين. وأمرهم أن يذبحوا العجل المسمَّن ليأكل الجميع وينعموا. فتلك فرحة لا تفوقها فرحة: «لقد عاد ولدي». وعندما رجع ابنه الأكبر من الحقل وسمع الغناء والرقص، لم يتفهَّم ذلك. فغضب وقال

لوالده: «إنّك لم تُقِمْ يومًا مأدبة لي ولأصدقائي».

«يا ابني»، أجاب أبوه، أنا أتفهَّمك. وإنّي أحبّك حبًّا عميقًا وأفخر بأمانتك. لقد مكثت إلى جانبي، وكلّ ما هو لي فهو لك. فمتى طلبت مأدبة لك ولأصحابك، فكلّ ما أملك سيكون بتصرّفك. ولكن عليك أنت أن تتفهَّمني. فهلاَّ حاولت أن تفهم ما يجول في قلب أبٍ فَقَدَ ابنه ثمّ لقيه حيًّا؟!»

وفي ذلك الجوّ العاطفيّ المشحون تردَّدت أصداء ذاك السؤال: «هلاَّ حاولت أن تفهم ما يجول في قلب أبٍ فَقَدَ ابنه ثمّ لقيه حيًّا؟!». ثمّ أجال يسوع طرفه في ذاك الطوق الحديديّ من حوله وقال: «هذا هو موقف اللّه من الإنسان الخاطئ».

أجاب عن السؤال، وهذا الجواب سوف يكلِّفه، في النهاية حياته. ولكنّه سوف يموت، كما عاش، وهو يحبّ من دون شروط.

فللرسل الخائفين الذين تركوه يموت وحيدًا، سوف يقول: «سلامي معكم، لا تخافوا، إنّي أتفهَّمكم. وسوف يموت وهو يصلّي من أجل الذين صلبوه: «يا أبتِ اغفر لهم، لأنّهم لا يعلمون ما يفعلون». وسوف ينتهي

coptic-books.blogspot.com

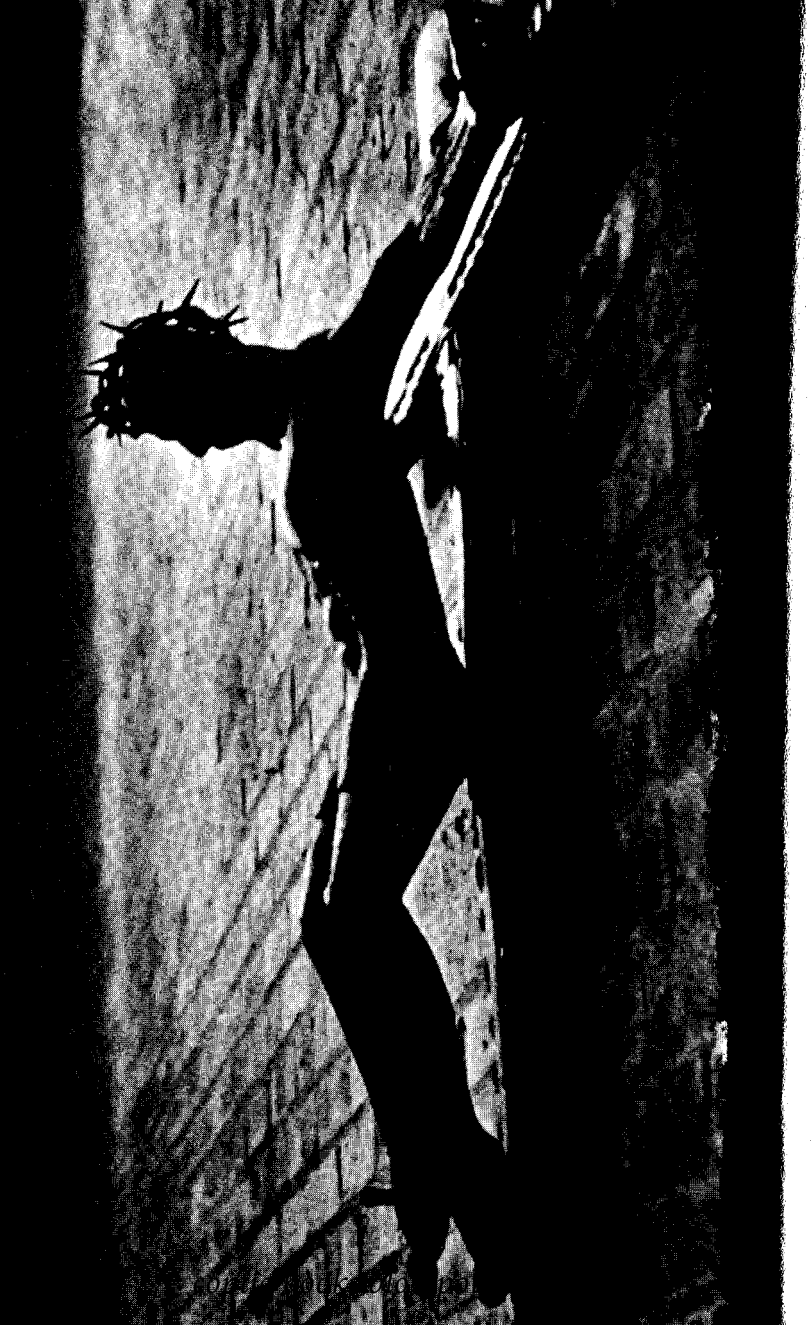

معلَّقًا بين لصَّين. فكأنّ ذاك الذي أمضى حياته باحثًا عمَّن رفضهم العالم، أبى أن يموت إلاَّ بين لصَّين، فالتفت أحد اللصَّين إلى الكتابة التي علت صليب يسوع، فقرأ: «هذا يسوع الناصريّ ملك اليهود» ثمّ عاد بنظره نحو يسوع وقال: «أنا لا أعرف عن ملكك أيّ شيء، ولكنّي أرجوك أن تذكرني إذا ما جئت في ملكوتك».

وكان ذاك هو الحديث الأخير الذي دار بين يسوع وشخص آخر قبل موته، إذ أجابه يسوع: «ستكون اليوم معي في الفردوس».

على كلّ صليب يُعَلَّق عليه المسيح وقلبه مفتوح، وذراعاه ممدودتان ليضمّ إلى صدره كلّ ضعيف ومتألّم في هذا العالم، يجب أن تحفر الكتابة التالية: «هذا ما أعني عندما أقول إنّي أحبّك»!.

ولكنّه أراد أن يَموت كَمَا عَاش،
مُحبًّا بغَيْر شُروط.

إذا كان مثل الابن الضالّ قصّة حبّ غير مشروط، فالمسيح على الصليب هو صورة ذلك الحبّ. كما في الحبّ نفسه، ففي شخص المسيح يجتمع الدفء والتحدّي. ففي الدفء خبرة ارتياح ولا أعمق. إنّ سلامه وتفهّمه يرافقاننا دائمًا، لا سيّما في تلك اللحظات التي نشعر فيها بعمق ضعفنا: «تباعد عنّي يا سيّد»، قال بطرس وكأنّه ينوح «لأنّني رجل خاطئ». ولكن الحبّ غير المشروط لا يتباعد أبدًا. وجلّ ما سأل يسوع بطرس، وما يسأل كلاً منّا: «أتُحبّني؟» إنّه لا يسأل عن الضعف فينا بل عن حبّنا. إنّ هذا في الحقيقة لمريح. وهذا هو التحدّي: «ليحبّ أحدكم الآخر كما أحببتكم أنا!».

الحبّ: المرفأ الذي منه يدخل اللّه

إنّ حبّ اللّه لكلّ منّا يأتي بمبادرة منه مجّانيّة وغير مشروطة، تمامًا كما كان حبّه للشعب الإسرائيليّ. يسوع هو كلمة ذاك الحبّ الذي أتى إلى العالم. وفيه يأتي اللّه إلينا، وهو يريد أن يُشركنا في ذاته الخيِّرة وينقل إلينا الفرح والحبّ الذي فيه. وقد شاء حبّه أن يرفعنا إلى ملء الحياة.

لقد خبرنا كلّنا في وقت من الأوقات، على الصعيد البشريّ، كم نحن في تَوق إلى مشاركة الآخرين في ما هو حسن: أخبار حسنة، نكتة مضحكة، فكرة عميقة... وعلى مستوى أرفع، نرى تَوق الفنّان إلى مشاركة جمهوره في رؤياه الجميلة، في ذلك النغم الذي أصغى إليه في عمق أعماقه. وعلى أعمق مستوى بشريّ ممكن، تقع الرغبة في الإنجاب: عندما يحبّ شخصان أحدهما الآخر حبًّا عميقًا، يشعران بتَوق إلى إشراك حياة جديدة في حياتهما وحبّهما، يخلقها اللّه من لحمهما ودمهما. هذا يشبه ما في اللّه. فحبّ اللّه مبادرة حرّة من لدنه، يشرك من خلالها الإنسان في حياته وفي حبّه. إنّها هبة مجّانيّة، حرّة، لم نكتسبها ولا استحققناها، ولا هي ملك لنا نطالب به. إنّه هبة أبديّة رائعة، تحملها إلينا أيدي الحبّ. إنّه عهد غير مشروط.

وجلّ ما يطلب منّا أن نقول «نعم». وكلّ ما علينا عمله هو الانفتاح لتقبُّل تلك الجوهرة التي لا تُثَمَّن. فمثل هذا الحبّ سيجعلنا نكبر في كلّ لحظة من حياتنا. «الانفتاح»، إنّها العبارة الأساس.

فالطفل الذي فيَّ يودّ لو كان ذاك الانفتاح عملاً

coptic-books.blogspot.com

بسيطًا. ولكن الواقع أنّ «نعم» الانفتاح الكبرى، تحمل في طيّاتها التزامات صغيرة متعدِّدة. بعض تلك الالتزامات مكلف جدًّا، وبعضها يتطلَّب شجاعة فائقة، والبعض الآخر يبقى بعيدًا عن الأضواء.

أن أقول «نَعَمْ» لعطيَّة اللّه، للحياة والحبّ، يعني أوّل ما يعني، أنّي أتَّخذ الحبّ مبدأً لحياتي. الرسول يوحنَّا، ذاك الذي أحبَّه المسيح حبًّا خاصًّا، كتب في رسالته الأولى:

«نحن عرفنا محبة اللّه لنا وآمنّا بها.
اللّه محبة. مَن أقام في المحبة
أقام في اللّه وأقام اللّه فيه».

١ يو ١٦/٤

أن أقول «نَعَمْ» للّه فذاك ليس بالأمر البسيط. لأنّ تبديل حياتي إلى حياة حبّ ليس أمرًا بسيطًا أو سهلاً. فإذا ما انتقيت الحبّ كمبدأ لحياتي، أصبح الهاجس عندي والسؤال الكبير: ماذا يحتّم عليّ الحبّ أن أكون وأقول وأعمل؟ فإجابتي الدائمة عن كلّ ما تطرح الحياة عليّ، ونظرتي إلى كلّ إنسان يقترب منّي أو يدخل حياتي، وموقفي من كلّ مَن

يتطلَّب من وقتي، وأعصابي وقلبي، كلّ ذلك يجب أن يتغيّر ليصبح دائمًا عمل حبّ. ففي النهاية، ذاك «النَعَمْ» هو الذي يجعلني أنفتح على اللّه. إنّ انتقائي لمبدأ الحبّ كمبدأ لحياتي، يجعل كأس نفسي رحبة، فيسكب اللّه فيها هباته ونعمه وقواه.

«طمي» Tommy

منذ نحو اثنتي عشرة سنة، وقفت يومًا في الجامعة أُراقب طلاّبي يدخلون، للمرّة الأولى، صفّ اللاهوت العقائدي. كان ذلك أوّل لقاء لي مع طمي. رفَّت عيناي آنذاك وأنتقض عقلي إذ رأيته يمشِّط شعره الشاحب المتدلّي فوق كتفيه حتّى ظهره. لم أرَ من قبل شابًّا شعره طويل كشعر طمي. كان ذاك الزّي بدأ ينتشر في تلك الفترة. أنا أعرف أنّ المهمّ ليس ما هو فوق الرأس بل ما في داخله؛ ولكنّي، ذلك اليوم، لم أكن مهيَّأً لِمَا شاهدت، فانقلبت عواطفي، وصنّفت طمي حالاً في خانة (غ) خانة الصنف الغريب... والغريب جدًّا.

وتبيَّن لي في وقت لاحق أنّ طمي كان الشخص المميَّز بإلحاده في صفّ اللاهوت العقائدي! فكان

coptic-books.blogspot.com

المعترض الدائم، والساخر الدائم، والمثابر في نكران وجود إله محبّ، لا شروط لحبّه. تعايشنا في سلام نسبيّ طيلة فصل الدراسة، غير أنّ وجوده غالبًا ما كان يزعجني كثيرًا. وعندما أتى، في نهاية الفصل، ليقدّم الامتحان النهائيّ، سألني بصوت فيه بعض الشكّ، ولا يخلو تمامًا من السخرية، قائلاً: «أتراني سألتقي الربّ يومًا، في رأيك؟» قرّرت في الحال أن أُحمّل جوابي صدمة قويّة، فأجبته «لا» بكلّ تأكيد. فبدا متعجّبًا وقال لي: «ظننت أنّك كنت تحاول دفعي إلى ذلك!» تركته يبتعد بعض الخطوات ثمّ ناديته، فالتفت إليّ، فقلت له آنذاك: «يا طمي أنا لا أظنّ أنّك ستجد اللّه، ولكنّي على يقين تامّ أنّه هو لن ينفكّ يبحث عنك حتّى يلتقيك!» فهزّ بكتفيه قليلاً، وترك صفّي، وخرج من حياتي (إلى حين). وأحسست بشيء من الخيبة لعدم تجاوبه مع ما ظننت أنّه كان جوابًا ذكيًّا.

سمعت يومًا أنّ طمي تخرّج. وشعرت ببعض الامتنان لسماعي الخبر. ثمّ بلغني خبر محزن؛ إنّ طمي مصاب بسرطان قاتل. وقبل أن أذهب إليه، أتى هو إليّ. وعندما دخل مكتبتي بدا منهمكًا، وقد تساقط شعره الطويل نتيجة العلاج الكيميائيّ. ولكنّي

أبصرت في عينيه بريقًا من النور، وللمرّة الأولى أحسست أنّ في صوته قوّة خاصّة. فبادرته بالقول، دون أن أُفكّر مليًّا: «كنت غالبًا أُفكّر فيك يا طمي، وقد سمعت منذ قليل أنّك مريض».

- «نعم، قال لي، أنا مريض ومرضي عضال. إنّ في رئتَيّ سرطانًا، ولم يبق لي في هذه الحياة سوى أسابيع معدودة».

- «هل بإمكانك أن تقول لي أكثر عن مرضك؟»

- «أجل، ماذا تريد أن تعرف؟»

- «كيف تشعر وأنت ابن الرابعة والعشرين، ومشرف على الموت!»

- «إنّ في الحياة أسوأ من ذلك».

- «ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من ذلك؟»

- مثلاً أن أكون ابن الخمسين ولا قِيَم عندي ولا مُثُل. أن أكون ابن الخمسين وأُفكّر أن السُكُر والنساء والفلوس هي الأمور المهمّة في الحياة».

فأخذت أستعيد ذكرياتي، وكيف أنّي صنّفت طمي تحت حرف (غ) كشخص غريب. (أنا أحلف أنّي كلّما رفضت شخصًا بتصنيفي له، يعيده اللّه إلى حياتي ليلقّنني درساً جديداً). وتابع طمي يقول:

coptic-books.blogspot.com

«إنّ الذي حملني على العودة إليك، هو ما قلته لي آخر يوم التقيتك في الصفّ. (لقد تذكّرا!) سألتك هل تعتقد أنّي سألتقي اللّه يومًا، فقلت «لا»! فتعجّبت من جوابك. ولكنّك قلت لي بعد ذلك: «ولكنّه هو لن ينفكّ يبحث عنك حتّى يلتقيك». فكّرت مليًّا بذلك، مع أنّ بحثي عن اللّه آنذاك كان يفتقر إلى الجدّيّة. (جوابي «الذكيّ»، فكّر فيه مليًّا!).

«ولكن عندما أخبرني الأطبّاء أنّني مصاب بداء السرطان، بدأت أبحث عن اللّه بكلّ جدّيّة. وكلّما تفشّى المرض فيّ، ضاعفت قرع باب السماء بقوّة. ولكن اللّه لم يخرج، ولم يحدث شيء أبدًا. هل حدث لك أن جاهدت طويلاً، بكلّ قواك، وفشلت؟ نشعر بالقنوط، ونفقد إرادة المثابرة، ثمّ نفقد كلّ أمل. إستيقظت ذات صباح، وبدلاً من أن أرسل بعض صرخات جديدة أُلقي بها فوق حائط القرميد العالي، نحو إله قد يكون هنالك أو لا يكون، قرّرت أن أتوقّف عن كلّ شيء. قرّرت ألاّ أهتمّ بعد... باللّه، وبالحياة الأخرى أو بأيّ شيء يشبه ذلك.

«قرّرت أن أصرف ما تبقّى لديّ من وقت في أمور

أكثر فائدة. فكّرت فيك وفي صفّك. وتذكّرت أنّك قلت لنا، فيما قلت: «الحزن كلّ الحزن في أن نعبر الحياة من غير أن نحبّ. وهناك حزن آخر يكاد يساويه، وهو أن نعبر الحياة ونترك الدنيا من غير أن نقولْ لَمَن نحبّ أنّنا نحبّهم».

«فبدأت بالشخص الأصعب: والدي، كان يقرأ الصحيفة عندما اقتربت منه:

- «يا أبي...»
- «نعم، ماذا؟ قال هذا وتابع القراءة».
- «أُريد أن أتكلّم إليك».
- «تكلّم، قل لي ما تريد»
- «ما أُريد هو غاية في الأهمّيّة».

نزلت الصحيفة قليلاً:

- «ماذا؟»
- «يا أبي، إنّي أُحبّك. أردتك أن تعرف ذلك».

ثمّ ابتسم طمي ومال بنظره نحوي وبدت البهجة في عينيه وكان دفء فرح كبير يفيض من قلبه: «سقطت الصحيفة فجأة إلى الأرض، ثمّ حصل أمران ما عرفتهما عند والدي من قبل. بكى، ثمّ ضمّني إليه وقبّلني . فتحدّثنا طوال ذلك الليل،

coptic-books.blogspot.com

مع أنّه كان سيذهب إلى عمله في صباح الغد. وكم أحسست بارتياح عميق بقرب والدي، برؤية دموعه والاحساس بضمّي إلى صدره وسماعه يقول لي إنّه يحبّني.

«توجُّهي إلى أمّي وأخي الصغير كان أقلّ صعوبة. بكيا معي هما أيضًا، وتعانقنا طويلاً، ورحنا نقول بعضنا لبعض أمورًا جميلة جدًّا وحقيقيَّة. أشركنا بعضنا في أمور كان كلّ منّا يحتفظ بها سرًّا في نفسه منذ سنوات عديدة. وإنّي أسفت لأمر واحد: وهو أنّي انتظرت هذا الوقت كلّه. فها أنا مشرف على الموت، وقد بدأت الآن فقط أنفتح حقًّا على الأشخاص الذين أحببت.

«ثمّ التفت يومًا وإذا اللّه إلى جانبي. لم يأْتِ إليّ عندما توسّلت إليه. كنت، على ما أعتقد، كمدرِّب حيوانات يحمل طوقًا كبيرًا ويدعو الحيوان

"نعَـمْ" الانفتاح الكُبرى، تحمِلُ في طيّاتها التزامات صَغيرة مُتعَدِّدة.

coptic-books.blogspot.com

إلى المرور فيه... هيّا... إقفز... إني أعطيك ثلاثة أيّام... ثلاثة أسابيع... يبدو أنّ اللّه يحقّق ما يريد كيفما يشاء وساعة يشاء.

«ولكن المهمّ أنّه كان هناك. إنّه لقيني. لقد كنت على حقّ. إنّه لقيني بعد أن توقّفت عن البحث عنه».

«يا طمي، أجبت وفي صوتي ارتجاف مَن كاد يبكي، إنّك تنطق بأُمور هي غاية في أهمّيّتها وشموليّتها. في نظري، ما تقوله هنا يعني أنّ أفضل سبيل إلى اللقاء باللّه، هو ألاّ نحاول امتلاكه، وألاّ نقيمه منقذًا لنا من المصاعب، يسكب في قلوبنا العزاء ساعة نحتاج إليه، بل إنّ أفضل السبل إليه انفتاح على الحبّ. أنت تعرف أنّ هذا من قول القدّيس يوحنّا. إنّه قال:

«اللّه محبّة.

مَن أقام في المحبّة

أقام في اللّه وأقام اللّه فيه».

«يا طمي، هل لي أن أطلب إليك خدمة؟ أنت تعرف أنّك لمّا كنت في صفّي كنت تشكّل إزعاجًا حقيقيًّا. ولكن بإمكانك أن تعوّض عليّ

الآن وتزيد. هل بوسعك أن تأتي إلى صفّي وتقول لطلاّب اللاهوت العقائديّ ما قلته لي الآن؟ فلو قلت لهم ذلك أنا، لَمَا كان لكلامي الوقع الذي سيتركه فيهم كلامك أنت».

«في الحقيقة، شعرت أنّه بإمكاني التكلّم إليك بما أحسست، ولكنّي لا أعرف هل لديّ الاستعداد الكافي للتحدُّث في الشيء نفسه مع طلاّبك».

«فكّر في الأمر، يا طمي. وإذا شعرت أنّ لديك مثل هذا الاستعداد، فسأكون في انتظارك وقت ما تشاء».

بعد بضعة أيّام، كلّمني طمي ليقول إنّه مستعدّ، وسوف يتحدَّث إلى صفّي، إكرامًا للّه ولي. حدَّدنا الزمان، ولكنّه لم يأتِ. إنّه كان على موعد أهمّ بكثير من موعدي. إنّ حياته، بالطبع، لم تنتهِ بالموت، إنّما هي تبدّلت. لقد خطا خطواته الكبرى من الإيمان إلى الرؤيا، ليجد هناك ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر.

قبل أن يموت تحدّثنا مرّة أخيرة فقال لي:

- «لن أتمكّن من المجيء إلى صفّك».

- «أعرف ذلك يا طمي».

coptic-books.blogspot.com

ـ «فهلاً قلت لهم عنّي ما كنت أودّ أن أقوله لهم أنا؟ أرجوك... أخبرهم... بل أخبر العالم كلّه».

ـ «سأفعل يا طمي، سوف أُحاول، سوف أعمل جاهدًا كي أنجح في ذلك».

فإلى كلّ منكم، أنتم الذين تكرّمتم عليَّ بسماع هذه الشهادة في الحبّ، إليكم جميعًا خالص شكري. وأنت يا طمي، حيث أنت في بهجة رحاب السماء الجميلة، أطمئنك: «لقد قلت لهم... وبكلّ ما أعطاني اللّه من قوّة وعون، أخبرتهم».

المحتويات

١ ـ مبدأ الحياة ٧
٢ ـ أزمة الحبّ المعاصرة ٥٣
٣ ـ معنى الحبّ ٨١
٤ ـ القوى التي تحرّك الحبّ ١٠٧
٥ ـ إله الحبّ ١٢٧

coptic-books.blogspot.com

الحبّ الذي يستحقّ الاسم، هو الذي بلا شروط...

إنّه رهان الحياة، وهو دائمًا هديَّة من القلب. ذاك هو نهج الله في حبّه لنا والطريقة الوحيدة التي يليق بها التعاملُ في ما بيننا. تلك الهديَّة تقول: أودّ أن أشاطرك الخير الذي فيَّ. قد يكون في مكان ما من الدنيا مَن هو أفضل منّي بالنسبة إليك، أو أفضل منكَ بالنسبة إليَّ. فليس ذاك بمهمّ. المهمّ إنّني قرَّرتُ أن أقدِّمَ إليكَ هديَّة «حبّي»، وقرَّرتَ أنتَ أيضًا أن تقدِّم إليَّ هديَّة حبِّك. قرارنا هذا هو التربة الوحيدة التي فيها ينمو الحبّ. «سنقتحم الحياة معًا ومعًا ننتصر».

في حبّي لكَ غير المشروط لا أعدك بأن يكون سلوكي دائمًا ما أنتَ تنتظر، كما أنّي لا أعدك بأنّني سأكون قويًّا على قدر ما تحِبّ. ولكنَّ أمرًا واحدًا أؤكِّده لكَ: إنّني ملتزم حتّى النهاية بنموِّك وسعادتك، وسأقبلك دائمًا كما أنتَ، وحبّي لكَ لن ينتهي.

منشورات
دارُ المشرق ش.م.م.
ص.ب: ١٦٦٧٧٨
الاشرفية، بيروت ١١٠٠ ٢١٥٠ لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
ص.ب: ٥٥٢٠٦ بيروت، لبنان

ISBN 2-7214-1147-0
9 782721
arabic-books.blogspot.com